الفصل الثاني

فن الغزل

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

فن الغزل

صورة الغزل في العصرين الجاهلي والإسلامي

هناك جملة من الألفاظ أو المصطلحات تطلق على المعنى المقصود بالغزل مثل النسيب والتشبيب والتغزل[1] ولكنها جميعاً بمعنى واحد.

ويصادفنا التغزل أو النسيب منذ أقدم نماذج الشعر الجاهلي وعند أقدم شعرائه رغم عدم استقلاله بقصيدة مفردة[2].

أوّل ما يلفت النظر إلى الغزل الجاهلي أصالته في النفس العربية وبلوغه درجة من النضج جعلته جديراً بأن يكون الأساس الذي انبنى عليه من بعد فن الغزل في الشعر العربي كله. بل إن بعض الكُتّاب يعتبر هذا الغزل هو الباعث على الأغراض الشعرية الأخرى في كثير من المواقف وعند كثير من الشعراء[3] ـ والأغراض المذكورة هنا هي الموضوعات الشعرية التي كان النسيب بصورتيه الطللية والغزلية جزءاً أساسياً من مقدمتها أو من المنهج الأدبي لها، وهكذا كان النسيب عند ابن قتيبة يعتبر موضوعاً ثانوياً بالقياس إلى المديح الذي يعتبره جوهر القصيدة[4]. في حين يرفض «فالتر براونه» تفسير ابن قتيبة للنسيب إذ يراه غاية في نفسه لا وسيلة لغاية أخرى بل يعتبره بشقيه «الشاذ والعادي» هو المحرك للإنسان في كل زمان ومكان على اختبار القضاء والفناء والتناهي[5] وهي نظرة وجودية لا حاجة لنا بها الآن لأن نظرتنا للنسيب نظرة جمالية.

وبناء على هذا نستطيع أن نرصد ثلاثة اتجاهات في الغزل الجاهلي هي: اتجاه تقليدي يجمع بين نماذجه الإطار العام والعناصر المشتركة، واتجاه صريح أو إباحي سواء أكان حسياً جاء وصفاً لمواطن الإثارة من جسم المرأة أم معنوياً من كونه تعبيراً عن الرغبة الغريزية أو حكاية عمّا يحدث بين الرجل والمرأة ـ في صورة مغامرات غرامية أما الاتجاه الثالث فهو المعروف بالغزل العفيف أو

---

(١) في النقد الأدبي عند العرب ص٣٠٨، ونقد الشعر ص١٢٣، ولسان العرب (غزل).

(٢) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية لنلينو ص١٠٢.

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام لشكري فيصل ص٢٦.

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢١.

(٥) الوجودية في الجاهلية لفالتر براونة (مجلة المعرفة السورية ـ السنة الثانية، حزيران ١٩٦٣).

العذري والذي لا يتجاوز في حسيته حدود الوصف الجمالي تمجيداً لمحاسن المرأة، ولا يتجاوز في معنويته التعبير عن لواعج الحرمان أو اللهفة والتشوق للقاء الحبيبة.

هذا، ويتمثل الاتجاه الأول في المقدمات الطللية أو الغزلية وما يتصل بها من وصف لظعن الحبيبة واسترجاع لطيفها إذا ما نأت بها الدار، هذا مع التمايز بين النماذج المختلفة من شاعر لآخر في أسلوب العرض للعناصر المشتركة والتفاوت في نصيب كل مقدمة غزلية أم طللية من تلك العناصر التي نص عليها «ابن قتيبة» أما عن وصف الطيف ووصف مشاهد ظعائن الحبيبة فإنهما مكملان لمقدمة الوقوف على الأطلال والمقدمة الغزلية باعتبارها جميعاً أشكالاً متمايزة للتعبير عن موقف مأساوي يضع الشاعر في صراع الحياة مع الموت.

أما عن الاتجاهين الآخرين، العذري والإباحي فمع أن لكل واحد منهما أعلامه إلّا أن التداخل بينهما واضح في غزل الشاعر الواحد. فامرؤ القيس مثلاً أميل في مقدمته الطللية إلى الغزل العذري في حين جاء غزله في صميم معلقته أدنى إلى الغزل الإباحي، ومثله الأعشى المعروف بإباحيته فقد عد له النقاد أجود ما قيل في طيب عرف المرأة[1] وفي موضع آخر يقرن جمال صاحبته[2] بجمال الطبيعة مما أضفى على صورة الغزل بعداً جديداً متجاوزاً الوصف الحسي إلى ما هو أدنى من الصورة المثالية لها على أن هذا لا يمنع من القول بأن هناك شعراء غلب على غزلهم التعلق بمحبوبة واحدة طيلة حياته ولا يكاد يتجاوز في نسيبه هوى النفس إلى شيء من الأوصاف الحسية. وقد عرف الشعراء من هذا الصنف بألقاب منها «عشاق العرب» أو «المتيمون» وقد سبقوا إلى معان ومروا بأحوال ماثلت كثيراً أحوال ومعاني العذريين في الإسلام حتى عدوا عنترة أباً للغزل العذري في الإسلام ومن شعراء هذا التيار في الجاهلية عبدالله بن العجلان وصاحبته هند وهو من الذين قتلهم العشق[3] ومثله مالك بن الصمصامة وصاحبته جنوب[4] ويعد المرقش الأكبر وصاحبته أسماء الذي سخر منه أبو نواس[5] وابن أخيه المرقش الأصغر وصاحبته فاطمة بنت المنذر من أشهر عشاق العرب ولا تختلف قصة عبدالله بن علقمة مع صاحبته حبيشة عن قصص من سبق ذكره من عشّاق العرب وقد أدرك عبدالله الإسلام وقتله جيش خالد بن الوليد ويُقال أن الرسول حين علم بحاله

---

(١) ديوان المعاني ١/٢٥٨.

(٢) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، للبهبيتي، ص٦٩.

(٣) رسائل الجاحظ ٢/١٠٥.

(٤) الأغاني ٢٢/٧٩ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب وتزيين الأسواق، لداود الأنطاكي، ١/٩٠.

(٥) ديوان أبي نواس، ص٥٥٧، ٧٢١، ط. الغزالي، ورسائل الجاحظ ٢/١٤٩، وتزيين الأسواق ١/٩٧.

لام قاتليه قائلاً أما كان فيكم رجل يرحم. هذا، ويعتبر غزل عنترة بن شداد قمة التيار العفيف في الغزل الجاهلي إذ امتزج في حبه لعبلة. الهوى بالبطولة ويقوم وصفه على الإكبار والتمجيد لها مع الإشادة بحيائها وخفرها فإذا نعتها بأنها لذيذة المبسم حسنة الفم شبه طيب ثغرها بالطيب الذي يسبق إليك من وعاء مسك أو بما تنشر من طيبها روضة بكر. ففي غزل عنترة تختلط رقة العاشق بكبرياء الفارس.

أما تيار الغزل الصريح أو الإباحي الجاهلي فخير ممثل له غزل امرىء القيس في مغامراته الغرامية وغزل الأعشى في تغلغله في مفاتن صواحبه الحسية. وكانت المرأة عند امرىء القيس إحدى لذاته الثلاث الصيد والنساء والخمر وهو زعيم المذهب القصصي في الغزل الجاهلي نظراً إلى أن مغامراته مع صواحبه كثيرة ومتنوعة[1] بحيث لم يكن لينهض بأحداثها غير المذهب القصصي. وقد وصف «العسكري» دبيب امرىء القيس إلى صاحبته بقوله: (أجود ما قيل في إخفاء الحركة عند زيارة المعشوق)[2] وتعد مغامرات امرىء القيس الغرامية ضرباً من الفتوة، هذا بالإضافة إلى تصويره لمفاتن المرأة تصويراً مادياً محسوساً. وقد صور امرؤ القيس نفسه في إحدى مغامراته الغرامية بأنه أصبح معشوقاً للمرأة وهو بهذا يكون أقرب شعراء الغزل الجاهليين من عمر بن أبي ربيعة من حيث المذهب القصصي في الغزل وكونه أصبح طلبة المرأة[3] وهو يعتبر فاتح باب المجون في الغزل على مصراعيه.

أما الأعشى فغزله مثل خمره يمثل آخر مراحل تطور الشعر الجاهلي قبل الإسلام[4] مباشرة. والغزل صنو الخمر في ديوان الأعشى حيث نجده في مقدمات بعض أماديحه وفي مجونياته، وفي مجالسه الخمرية. وقد تركت رحلات الأعشى إلى البلاد الأكثر رقياً من حول بلاد العرب آثارها الواضحة في شعره عامة وغزله خاصة. فهو لا يطيل في الوقوف على الأطلال ولكنه يطيل في النسيب في مقدمات قصائده[5]. كما شاعت الرقة في شعره وكثرت الألفاظ الأجنبية خاصة الفارسية[6] وكان غزله أرق غزل حتى عد له النقاد أغزل وأخنث بيت[7] وأحسن ما قيل في الشعور

---

(١) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، للبهبيني، ص٣١٤.

(٢) ديوان المعاني ١/٢٢٥.

(٣) ديوان امرىء القيس، ص٣٢، ط. دار المعارف سنة ١٩٥٨م.

(٤) الأغاني ٩/١٢٦ وما بعدها ط. الدار.

(٥) تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان ١/١٤٨ (الترجمة العربية).

(٦) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ١/٢١٣.

(٧) الأغاني ٩/١١٢ ط. الدار.

على رأي بشـار. وقد قرنه «ابن سلام» مع امرىء القيس بين الشعراء المتعهرين[1] فديوانه يغص بالعديد من أسماء النساء وكان البعض منهن قياناً[2] وفي غزله يدقق في وصف الجسم ويتغلغل في مواضع الفتنة من المرأة وما تخفي ملابسها وكان مفطوراً على خلق الفتيان ويرى أنه لا ينال المرأة إلّا الفاتك الجريء، أما أوصافه لمحاسن صواحبه فلا تكاد تترك عضواً إلا تناولته من شعر وبشرة وأسنان وجيد وثغر وأنامل. . . إلخ.

كذلك رأيناه يزاوج بين ريق صاحبته والخمر، كما أولى زينة المرأة وحليها اهتماماً خاصاً وعنى أيضاً بملابس المرأة وذكر منها القمصان المصبغة والأكسية المخططة وأنواعاً من الحرائر والقطيف وأيضاً سمى ما كانت تستعمل المرأة من طيب كالمسك والعنبر والكافور.

واضح مدى رقي الغزل الجاهلي مع تنوعه واختلاف مدارسه وبيئاته مما جعله بحق الأساس الذي بنى عليه الإسلاميون أغزالهم من بعد.

. . . . . .

وفي العصر الإسلامي استمر الغزل بتياراته الثلاث: التقليدي والعفيف العذري والصريح الإباحي.

أما التيار العفيف فإن الإسلام نفسه يدعو إلى العفة. وكان عمر بن الخطاب يجلد مَنْ يشبب بالنساء[3] حتى أن بعض الشعراء لم يجرؤ على التصريح بما كان يصرح به شعراء الجاهلية، فهذا حميد بن ثور الهلالي يلجأ إلى الكناية مرة والرمز أخرى للتعبير عمّا كان يعتلج في صدره من عوامل الحب والهوى[4] على حين أودت صراحة عبد بني الحسحاس في غزله بحياته[5] فإذا مضينا إلى ما بعد هذا العهد التقينا بشاعر قرشي هو أبو دهبل الجمحيّ الذي عاش في زمن علي بن أبي طالب[6] والذي يعتبر مقدمة لعمر بن أبي ربيعة في منتصف العصر الأمويّ ـ فهو مثله قرشي وكان يهوى امرأة قرشية من قومه بل لقد تعلق بعاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان وشبب بها وهي في طوافها في موسم

---

(١) طبقات فحول الشعراء، لابن سلام ١/٤٢ بتحقيق محمود شاكر.

(٢) ديوان الأعشى ص٢٠٩ وغيرها.

(٣) الأغاني ٤/٣٥٦ ط. الدار.

(٤) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص٣٣ وما بعدها ط. دار الكتب.

(٥) طبقات فحول الشعراء ١/١٨٨ بتحقيق محمود شاكر.

(٦) الأغاني ٧/١١٤ ط. الدار.

الحج[1] كما فعل عمر مع فاطمة بنت عبدالملك وغيرها من حرائر قريش.

وبعد أن فقد الحجاز أهميته السياسية مال أهل الحجاز إلى حياة الاستقرار والدعة خاضعين للمؤثرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فأقبلوا على الاستمتاع بلذات الحياة وكثر بينهم المغنون والمغنيات كثرة مفرطة وقامت الدور الترفيهية للسماع وللهو واللعب[2] وللمواءمة بين الدين والدنيا بين الفن والعقيدة خرجوا بنظرية توفيقية سمحت لشعرائهم الغزلين أن يتغنوا في قصائدهم الغزلية أثناء المناسك والشعائر الدينية فالحارث بن خالد المخزومي مثله مثل عمر بن أبي ربيعة لا يرى من حرج في مطاردة عائشة بنت طلحة وهي تعتمر ذاكراً مكة والمحصب والحجون وغيرها من المناسك الدينية[3] ومثله عبيدالله بن قيس الرقيات ما أن يرى رقية بنت عبدالواحد العامرية وهي قرشية تسبقه إلى استلام الركن[4] وتقبيله حتى يهزه المنظر فيتغزل في رقية ذاكراً استلامها الركن وكذلك فعل أبو نواس في العصر العباسي مع صاحبته جنان حين قبلت الحجر الأسود أما عمر بن أبي ربيعة فهو زعيم شعراء الحجاز عامة وكانت كل صواحبه من فضليات النساء ومن ذوات الشارات والأحساب والنسب الرفيع فغزله مثل صواحبه ومثل طبقته الاجتماعية ارستقراطي وأبين في التعبير عن أهواء طبقته التي فيها اقتربت مكانة المرأة من مكانة الرجل كما لم تقترب في أي طبقة أخرى[5] وهكذا استطاع عمر أن يكشف عن أدق أحاسيس المرأة الحجازية في عصره المتميزة بجمالها ورفعة نسبها وإقبالها على الحياة وكان أسبق شعراء عصره، إلى معرفة متطلبات المرأة حتى رأيناه يحكم بين السيدة سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة أيهما أجمل[6]. وكان عمر صديقاً ودوداً للمرأة يراها أجدر بشعره من الملوك والخلفاء[7] ولعله الشاعر الوحيد في زمانه الذي لم يقل في غير الغزل شعراً وهكذا كان غزل عمر جديداً في نظمه ولفظه وفكرته[8].

وفي نفس الوقت الذي ازدهر فيه الغزل الحجازي الصريح ازدهر ضرب آخر من الغزل كان

---

(١) الأغاني ٧/١٢٢.

(٢) العصر الإسلامي، لشوقي ضيف ص١٤٣.

(٣) الأغاني ٣/٣١٢ ط. الدار.

(٤) ديوان عبيدالله بني قيس الرقيات ص٣٦ ط. صادر، والأغاني ٥/٩٦ ط. الدار.

(٥) رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، للشكعة، ص١١٦.

(٦) الأغاني ١٦/١٥١ ط. الدار.

(٧) نفسه ١/٧٤ ط. الدار.

(٨) رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، للشكعة، ص١١٨.

مجاوراً له في المكان ومعاصراً في الزمان وهو الغزل العذري أو العفيف الذي اعتبرنا عنترة بن شداد الأب الشرعي له وهو مشتق من عذره إحدى قبائل العرب التي كانت تقيم في وادي القرى بين المدينة والشام[1] وجميل بن معمر زعيم التيار العفيف يقابل عمر زعيم التيار الصريح أو الإباحي وصاحبة جميل هي بثينة من قبيلة عذرة أيضاً والجمال والعشق فيها كثير.

ومن الشعراء العذريين مَنْ ينتسبون إلى نجد كقيس بن الملوح. وأقدمهم هو عروة بن حزام العذري الذي قتله الهوى وصاحبته عفراء بنت عمه عاش في خلافة عثمان بن عفان وجميع شعراء الغزل العفيف أو العذري انتهوا كما يقول الجاحظ[2] بين مجنون هائم على وجهه وبين صريع هوى. هذا ووراء ظاهرة الغزل العذري عاملا الدين والحياة الاجتماعية مع ما بينهما من انسجام تام فقد أشرب هؤلاء الشعراء قيم بيئتهم وتقاليدها العربية الخالصة ومعها ما جاء به الدين الحنيف من مقتضيات فكانوا أعفاء مرتين مرة لطبيعة حياتهم الاجتماعية وأخرى استجابة لمقتضيات الدين فجاء غزلهم منفوحاً بعبير التقى والورع خلوا من الابتذال والكشف عن أسرار المحبين وبينما كان غزل عمر حضرياً بين صواحبه الكثيرات كان غزل جميل بدوياً متوفراً على محبوبة واحدة لا يعدوها إلى غيرها فكان قنوعاً من غير زهو ممسكاً من غير جبن.

غزل أبي نواس:

لاحظنا من خلال العرض الذي قدمناه للغزل في العصرين الجاهلي والإسلامي أن هذا الغزل كان يسير في ثلاثة تيارات هي: تيار الغزل التقليدي، وتيار الغزل العفيف أو العذري أو المثالي أو التحليلي وتيار الغزل الصريح أو الحسي أو الإباحي.

أما في العصر العباسي فقد اختلفت صورة الغزل تبعاً للمتغيرات الجديدة التي طرأت على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، حتى وجدنا طه حسين ينفي وجود مدرسة غزلية[3] في هذا العصر، على أنه ربما كان الغزل بالمذكر الذي يعتبر أبو نواس زعيمه أهم ما جد على الغزل في هذا العصر، في حين كاد يختفي إن لم يكن قد اختفى فعلاً الغزل العذري بمفهومه الإسلامي[4]، هذا بالإضافة إلى نوع طريف من الغزل بالمؤنث هو غزل الغلاميات الذي كان أبو نواس زعيمه أيضاً في هذا العصر.

---

(١) معجم البلدان، لياقوت (وادي القرى).

(٢) رسائل الجاحظ ٢/١٠٤.

(٣) حديث الأربعاء لطه حسين ١/٢٩٤.

(٤) حديث الأربعاء لطه حسين ١/٢٩٤، وأيضاً ٢/١٠٥.

غزله في جنان:

يتميز هذا الغزل في كون أبي نواس اقتصر فيه على التشبيب بامرأة واحدة، هي جنان جارية آل عبدالوهاب الثقفي المحدث. وكانت تربط أبا نواس بهذه الأسرة علاقة صداقة عن طريق محمد بن مناذر الشاعر رفيق الصبا لأبي نواس. والذي كانت له صحبة معروفة بعبدالمجيد الثقفي بن عبدالوهاب الثقفي[1].

أما «جنان» فكانت شابة على قسط وافر من الجمال، عاقلة ظريفة أديبة، تعرف الأخبار وتروي الأشعار[2] وهكذا فتنت أبا نواس عن نفسه، حتى أنه حين رآها لأول مرة بالمربد، أخذ يطيل التحديق إليها، حتى لفت إليه نظر مَنْ كان معه من أصحابه فقال له:

(خرجت عن حدك الذي كنت تنسب إليه يا أبا نواس يعني من حب الغلمان إلى حب النسوان)[3].

وكانت نتيجة الصدمة الأولى مقطوعة من الشعر تمثل حالة من الذهول والحيرة وقد بلغ إعجابه بجنان أن رفعها فوق حد البشر لولا ما هي عليه من صورة الإنسان حتى حق لها الاستبداد بالقلوب تقطف من ثمار حبها ما شاء لها أن تقطف:

إني صرفتُ الهوى إلى قمرٍ ... لا يتحَدَّى العيونَ بالنّظرِ[4]
إذا تأمَلْتَه تعاظَمَكَ الإ ... قرارُ في أنه من البشرِ
ثم يعودُ الإنكارُ معرفةً ... منك إذا قِسْتَهُ إلى الصُّوَرِ
مباحةً ساحةُ القلوبِ لهُ ... يأخذُ منها أطايبَ الثَّمرِ

ولكن جنانا ظلت تمتنع عليه وتصده كلما ازداد هو إلحاحاً في طلبها بل ربما شتمته وسبته فلا يزيده السب والشتم إلّا إصراراً، وكأنما امتناعها عليه كان يهيج من شغفه بها ورغبته في حب تملكها. على أن هناك خبراً يرويه ابن منظور عن جنان وهو أنها كانت (تحب النساء وتميل إليهن)[5] أي أنها كانت شاذة كأبي نواس من ميل كل واحد منهما لجنسه ولكني لا أظن ذلك إذ لو كانت كذلك لاختلف سلوكها مع أبي نواس اختلافاً بيّناً عمّا عرفنا عنها من التزام وتعفف حتى أنها

---

(١) الأغاني ١٨/١٠٩ ط. الثقافة.
(٢) الأغاني ٢/٤٢٣ ط. الثقافة.
(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٧٨.
(٤) ديوان أبي نواس ص٢٤٠ ط. الغزالي.
(٥) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٧٩.

اشترطت عليه حين عرضت عليها مولاتها أن تهبها لأبي نواس أن لا يلوط ولكنه لم يقبل وفي ذلك يقول:

يُشَارِطُني الحبيبُ على الشّروطِ ... ولستُ بما يُشارط بالسَّخُوطِ[1]
أرى تركَ اللّواط عليَّ عاراً ... لإنّي واحدٌ من قومِ لُوطِ

ولو كانت جنان شاذة كأبي نواس لما فجرت في قلبه نحواً من خمسين قصيدة ومقطوعة من الشعر الرائق الذي يغلب عليه التسامي والعفة، ثم لما كان هذا الإلحاح منه والإعراض منها إلى درجة احتقاره وشتمه، والمهم أن جناناً أصبحت شغل أبي نواس الدائم، لا يكف عن ذكرها حتى صارت سيرته معها حديث الناس في البصرة:

أما يفنى حديثك عن جَنانِ ... ولا تُبْقِي على هذا اللّسانِ[2]
أكُلَّ الدهر قلتُ لها وقالَتْ ... فكم هذا! أما هذا بِفَانِ

وكذلك كان الشعراء العذريون في أحاديثهم وأشعارهم والفرق بينهم وبين أبي نواس أن العذريين كانوا أعفاء في القول والفعل وعاش الواحد منهم يتغنى بحب امرأة واحدة لتنتهي حياته بفجيعة إما هائماً مجنوناً أو صريعاً. أما أبو نواس فلم يكن عفيفاً في القول ولا الفعل لأنه ظل مع حبه لجنان يمارس انحرافاته حتى إذا أُتيحت له فرصة الظفر بجنان لم يتوان عن اهتبالها كقوله حين التقى بها وهي تقبّل الحجر الأسود:

وعاشقين التفَّ خَدَّاهما ... عند التثامِ الحجرِ الأسودِ[3]
فاشْتفيَا من غير أَنْ يَأْثَمَا ... كأنما كانا علَى مَوْعِدِ
لولا دِفَاعُ الناس إيّاهما ... لما استفاقا آخر المُسْنَدِ

ولكن ذلك لا يمنع من القول أن في غزل أبي نواس ملامح عذرية نلمسها في سلوكه أحياناً، من ذلك أنه كان إذا ساقته المصادفة للاجتماع بجنان، تملكه الحصر والعي فلا يبين، مع حرصه على رؤيتها وتتبع أثرها حتى كان يسبب لها الحرج إلى الدرجة التي كاد فيها أن يلين قلبها له:

يا ذا الذي عن جنانٍ ظل يُخبرني ... بالله قل وأعد يا طيِّبَ الخبرِ[4]
قال: اشتَكتْكَ، وقالت: مَا بُليتُ بهِ ... أراه من حَيْثُما أقبلتُ في أَثَرِي

---

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١٨٩.
(٢) ديوان أبي نواس ٤/١٢٠ تحقيق غريغور شولر.
(٣) المصدر السابق نفسه ٤/٤٢.
(٤) ديوان أبي نواس ص٢٤٨ ط. الغزالي.

ويُعْمِلُ الطَّرفَ نحوي إن مررتُ به حتى ليخجِلَني من حِدَّةِ النَّظرِ
وان وقفتُ له كيما يُكَلِّمَني في الموضعِ الخلْولم ينطقْ من الحصَرِ
ما زال يفعل في هذا ويُدْمِنُهُ حتى لقد صار من هَمِّي ومن وَطَرِي

أليس في قول أبي نواس: «وإن وقفت له . . .» شبه من بيت جميل في بثينة:

يموت الهوى مني إذا ما لَقِيتُهَا ويَحْيا إذا فارقْتُهَا فيعودُ[1]

ومن شدة تعلقه بجنان، نراه يقتفي أثرها حاجاً حين سمع أنها أزمعت الحج من غير سابق نية له على الحج أملاً في الاجتماع بها هناك[2]:

ألم تر أنني أفنيتُ عمْري بمطلبها، ومطلَبُهَا عَسِيرُ
فلما لم أجد سبباً إليها يُقَرِّبني، وأعيَتْني الأُمورُ
حججتُ، وقلتُ: قد حجَّتْ جنانُ فيجمعُني وإياها المسيرُ

وهناك تشف نفسه وتصفو أحاسيسه فإذا به ينشد مقطوعة من الشعر الصوفي أدخلها النقاد في باب الزهد قبل أوان زهده وهي التلبية التي يرددها كثير من المنشدين الدينيين في مختلف أقطار العالم الإسلامي وفيها يقول:

الهنَا، ما أعدلَكْ مليكَ كُلِّ من ملَكْ
لبّيكَ قد لبّيتُ لَكْ لبّيكَ إن الحمدَ لَكْ

يذكر ابن منظور أن أبا نواس حين جعل يلبي ويطرب في صوته اجتمع به كل مَنْ سمعه[3].

والظاهر أن أبا نواس حاول أن يصلح من أُموره ليكون على وفاق مع جنان فيما اشترطت عليه من الإقلاع عن مباذله[4]. كما يظهر ذلك في قصيدته التالية:

لولا حذاري من جِنانِ لخلعت عن رأسي عناني[5]
وركبتُ ما أهوى وكم أجفُو مقالَة من نَهانِي
وخرجت أخبِطُ سادراً لم أَغْنَ عن حُبِّ الغوانِي

(١) ديوان جميل بثينة ص٦٧.

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٨٢.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٨٢.

(٤) أبو نواس عالم آخر «لدعبل» ص٦٦.

(٥) ديوان أبي نواس ص٢٨٩ ط. الغزالي.

إذن هي جِنان التي أصبح يرهبها إذا ما حاول الذهاب في فسقه وفجوره. ولكنه يختم القصيدة بأبيات تشعر بيأسه وتشاؤمه بعد أن فشل في تحقيق طموحه فمضى متعزياً بالملاهي والملذات:

ولـقـد أقـولُ لمـنْ دعـا ... هُ من الـهَـوى ما قد دعَـانِـي
أبـلغْ هواكَ من الـغـنـا ... والـكـأسِ واغْـنَ عن الـزَّمـانِ
لا يَشْـغَـلَنَّـكَ غيرُ ما ... تَهْـوى فكـلُّ الـعـيشِ فانِ
ودعِ الـهـوانَ لأهـلِهِ ... إذ زلـتَ عن دارِ الـهـوانِ

وهكذا فلم يفتر له حماس في طلبها فظل يطاردها أينما ثقفها رغم ما بينهما من جدر صفيقة، ورغم ما ألحق به هذا الحب من ضيم وضير، حتى لم يكد يبقى منه إلّا الأقل احتسبه في الله مصراً على طلبها ما دام فيه عرق ينبض بالحياة غير سال ولا يائس:

كمـا لا ينـقـضـي الأرب ... كذا لا يفـتـر الـطلب[1]
قلبـت لحـاجـتـي الـدنـيا ... فليس لوصـلهـا سبـب
أُمِـيتَـتْ دونَـهـا الأطـمـا ... عُ حالَـتْ دُونَـهـا الـحـجُبُ
رأيتُ الـبـائـيسـين سوا ... يَ قد يسْـلُون ما طلَبُـوا
ولـم يُبْـقِ الـهَـوى إلّا ... أقَـلِّي وهـو مُحْـتَـسَـبُ
سوى أنّـي إلـى الـحـيوا ... نِ بالـحـركـاتِ أنْـتَـسِـبُ

لقد أدخلت «جِنان» أبا نواس في حالة جديدة من الصراع النفسي العنيف حين وضعته أمام اختيار صعب بين الـطمـوح والواقع، بين الرغبة المحمومة التي تحلق بصاحبها إلى السماء وبين المغـريات الكبيرة التي تكبـل جنـاحيه عن التحليق إذ لم يستطع الجمع بين النقيضين: جِنان: والواقع. وهكذا مثلت جِنان له الطموح والأمل، ومثل الواقع المغريات والمباذل، وعلة أبي نواس أنه أراد الجمع بينهما، فانحاز عنه الأمل والطموح لتكون النتيجة الطبيعية بعد الإبقاء على مباذل الواقع ومغرياته اليأس من الطموح حتى أصبح يدور في حلقة مفرغة ومن يقارن بين غزله في جنان وبين غزلـه في غيرها من الجواري يلاحظ أنه في الأول جاد صادق قليل الإنجاز والمناجزة، وفي الثاني كثير المناجزة والإنجاز بمعنى إن الدارس يحس أن أبا نواس كان كثيراً ما يصل إلى أغراضه في غزلياته إما بالرغبة المحضة حين توافقها رغبة أخرى للطرف الأخر، وإما بالقهر والاحتيال والكد

(١) ديوان أبي نواس ٤/٢٧ تحقيق غريغور شولر.

بل ربما كان غزله في غير جِنان من النساء والغلمان أيضاً يشوبه غير قليل من العبث واللهو في حين أورثه غزله في جِنان الجاد الهم والسخط بل الحرمان والشكوى.

وكانت «جِنان» كثيراً ما تعده مخلفة وعدها متعللة بأسباب واهية فيجأر بالشكوى ساخطاً:

جفـن عينـي قد كاد يـ ـسقط من طُولِ ما اختـلَجْ[1]
وفـؤادي من حَرِّ حُبِّـ ـكِ والـهـجـرِ قد نضَـجْ
خَبِّـريـنـي - فدَتْـكِ نفـ ـسي وأهـلي - متى الـفـرجْ
كان ميعـادُنَـا خرو جَ زيادٍ وقَـدْ خرجْ
أنـتِ من قتـلِ عائـذٍ بكِ في أضـيقِ الـحـرجْ

عد أبو نواس إخلاف الوعد مثل جريمة القتل، فهو يحمل «جناناً» وزر قتله...؟

وكما كان هذا الحب شاغل أبي نواس في حياته كان هاجسه في حلمه فكان إذا توهم رؤية جنان في منامه وساد الوئام بينهما وسعدا في وصال بعد قطيعة وهجران يفيق على الحقيقة المُرة وهي أن الأحلام غرارة:

إذا الـتـقـى في الـنـومِ طَيْفـانَـا عاد لنـا الـوصْـلُ كمـا كانَـا[2]
يا قُرَّةَ الـعـينـينِ ما بالُـنَـا نشـقـى ويلتَـذُّ خيالانـا
لو شِئْـتِ إذ احْـسَـنْـتِ لي في الكـرى أتـمَـمْـتِ إحسـانَـكِ يقـظَانَـا
يا عَاشـقـين اصْـطلَحـا في الـكَـرَى وأصبـحـا غَضْبي وغـضـبَـانَـا
كذلـك الأحـلام غـدَّارَةٌ وربَّـمـا تصـدقُ أحْـيانَـا

ولكن أبا نواس يعود ليوهم نفسه بصدق فراسة الأحلام، فها هي «جِنان» تسأله الصلح في النوم كما سألها الوصال في اليقظة، ولكن طيفه يرفض الصلح، تماماً كما كانت تفعل هي معه في اليقظة، وبهذه العملية المعقدة للطيف التي هي من صنع الشعر وهو من «عقد السحر»[3] يكون أبو نواس قد حقق لنفسه موازنة جمعت بين اليقظة والحلم ليمتد في حبهِ من اليقظة إلى الحلم أو العكس وهكذا كان الطيف مزدوج المهمة إلى الحد الذي جعله أبو نواس كفيئاً عدلاً لصورتي حبه

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٣٠ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٢٤٤.

(٣) ديوان أبي نواس ص٢٦٤ ط. الغزالي.

في سرائها وضرائها:

دسَّتْ له طيفَها كيما تُصَالِحهُ ... في النومِ حين تأبّى الصُّلحَ يقظَانَا[1]

فلم يجدْ عند طيفي طيفُها فرحاً ... ولا رثى لتشكِّيهِ ولاَ لانَا

حسبت أنّ خيَالي لا يكون لَما ... أكونُ من أجلهِ غضبانَ غضْبانَا

جِنانُ لا تَسْألِيني الصُّلحَ مسرعةً ... فلم يكن هَيّناً مِنْكِ الَّذي كَانَا

على أن أبا نواس بلغ الغاية في التوفيق بين حالين رأى فيهما جِنان في اليقظة لا في الحلم: حال سراء، وحال ضراء وقد تحمل إحدى المقطوعتين اللتين قالهما في هاتين المناسبتين أنانية المحب وغرور الشاعر. أما عن مناسبة هذه المقطوعة، فهي كما جاء في الأخبارِ أن أبا نواس رأى جناناً في مأتم وهي تلطم وجهها بيدها المخضبة فراعه المنظر فقال:

يا قمراً أبرزهُ مأتم ... ينْدبُ شَجْواً بين أترابِ[2]

يبكي فَيُذْرِي الدُّرَّ من نَرْجسٍ ... ويلطم الوَرْدَ بِعُنَّابِ

وفي هذين البيتين محاولة من الشاعر لتجاوز مأساة الموت بالحب والحياة، سواء أكان بواسطة التصوير المباشر أم بالإيحاء.

على أن أبا نواس لا يلبث طويلاً حتى يصرف محبوبته عن الأسى على ميت وافاه أجله المحتوم إلى قتيل هجرها وإعراضها عنه وها هو بالباب ينشد الحياة والحب في الموت والأسى. بهذه البراعة الشعرية المعهودة حول أبو نواس عن طريق المقارنة الموقف المأساوي إلى شبيه بالملهاة بكل ما فيها من همجية وقسوة واقتحام للمشاعر الإنسانية:

لا تبك ميتاً حل في حفرةٍ ... وابكِ قتيلاً لك بالبابِ[3]

أبرزه المأتم لي كارهاً ... برغمِ دايات وحجّاب

لا زال موتاً دأب أصحابه ... ولم تزل رؤيته دابي

وقد بلغ إعجاب القدماء بهذه المقطوعة أن عدوا أبا نواس أشعر الناس بسببها[4].

وقد كرر أبو نواس نفس الموقف مع شيء من التعديل والتحوير فها هو يحتال حتى يرى «جِناناً» في مأتم آخر وقد حسرت عن وجهها ليذهل كل مَنْ في المأتم حتى أنسوا ما هم فيه من أسى وحزن

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٨٣.

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/ ١٩٠.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/ ١٩٠.

(٤) أخبار أبي نواس لأبي هفان ص٢٣ و ص١١٩.

مفتونين بحسن جِنان وجمال صورتها.

يا منسي المأتم أشجانهم ... لما أتاهم في المعزينا[1]
حلت قناع الوشى عن صورة ... ألبسها الله التحاسينا
فاستفتنتهن بتمثالها ... فهن للتكليف يبكينا
حق لذاك الوجه أن يزدهي ... عن حزنه مَنْ كان محزونا

ومرة أخرى تشهد «جِنان» عرساً لينصرف كل مَنْ في المجلس إليها حين حسبوها العروس مما سبب ضيقاً شديداً لأهل العروس عادين حضورها داهية حلت بهم عازين ذلك إلى مولاة «جِنان» «عمارة» زوجة عبدالرحمن الثقفي:

شهدتْ جَلوةَ العروس جِنانٌ ... فاستمالتْ بِحُسنها النَّظَّارةْ[2]
حَسِبُوها العروسَ حين رأَوْها ... فإليها دُونَ العروس الإِشَارةْ
قال أهلُ العروسِ حين رَأَوْها ... ما دهانَا بها سِوَى عمَّارَةْ

واضح أن موقف الشاعر من «جِنان» في الحالين المتناقضين واحد، هو موقف المحب الوامق بكل غروره وأنانيته. ففي الموقف الأول سما بمحبوته على الآلام، ليراها كما يشتهي بغض النظر عن آلام الآخرين وفي المرة الأخرى انتزع الإعجاب لها ممن كان أحق بهذا الإعجاب غير آبه لما أصاب أهل العروس من غبن وخيبة.

هذا، وتتجلى قوة تأثير «جِنان» في أبي نواس في جانبين: الأول، أنها طهرت غزله فيها من كثير من الأوضار والابتذال والإباحية التي كانت تخالط تغزله في غيرها من الجواري، الثاني، أنها أعطت لشعره فيها أبعاداً فلسفية وأفكاراً تأملية قد لا نجده في ما قاله في غيرها. وهكذا وجدنا النقاد يستدلون ببعض غزله في جِنان على قدراته العقلية وممكناته الثقافية كما قدمنا في القسم الأول من هذه الدراسة في حديثنا عن ثقافة الشاعر، من ذلك المقطوعة الجميلة التالية:

وذاتِ خَدٍّ مُوَرَّدْ ... فَتَّانةِ المتجرَّدْ[3]
تأملُّ الناسُ فيها ... محَاسِناً ليسَ تَنْفَدْ
الحسنُ في كُلِّ جزءٍ ... منها معادٌ مُرَدَّدْ

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٩١.

(٢) المصدر السابق نفسه ١/١٨٤.

(٣) ديوان أبي نواس ص٣٧١ ط. آصاف.

فبعضُه في انتهاءٍ وبعضُه يتولَّدْ
وكلما عدتَ فيه يكونُ بالعَوْد أحمَدْ
فاشربْ على وجه بدْرٍ رَيّانَ غيرَ مُعَرْبِدْ.

ولعله لأول مرة نسمع شاعراً يصف جمال حبيبته بالهدوء والاطمئنان وبأنه جمال غير معربد، وهو الجمال الذي يظل يتجدد في عيني الرائي بمحاسن لا تنفد، إن تناهى بعضها تولد البعض الأخر ليكون أجمل في معاودة النظر إليه. وكان أبو نواس يحل هذه المقطوعة مكانة خاصة من نفسه حتى جعلها في مقدمة شعره كله[1].

ومنها أيضاً المقطوعة التالية من الغزل الرقيق في جِنان:

رسمُ الكرى بين الجفونِ مَحيلُ عَفَّى عليه بُكاً عليكَ طويلُ[2]
يا ناظراً ما أقلعتْ لحظاتُهُ حَتّى تشحّطَ بينهن قتيلُ
أحللتُ من قَلْبي هواكِ محَلّةً ما حلَّها المشروبُ والمأكولُ
بكمالِ صُورتكِ الّتي في مثلها يتحيّرُ التشبيهُ والتّمثيلُ
فوق القصيرةِ والطّويلة فوقَها دونَ السّمينِ ودُونها المهزولُ

في هذه المقطوعة يعمد أبو نواس إلى ضرب من التجسيد والتجريد معاً، تجسيد المجرد وتجريد المجسد معقداً في صنعته الشعرية بل نظره الشعري وذلك حين حور في الرسم «المجسد» بأن ألحقه بالمجرد الذي هو الكرى لأنه حالة لا وجود له قائماً بذاته بأن جعل لهذه الحالة التي تعتري الإنسان وجوداً مادياً عن طريق الرسم بالقران ثم تجاوز هذا إلى ما هو أكثر تجريداً للمجسم، وأكثر تكثيفاً للمجرد بأن جعل رسم الكرى تعفى عليه الدموع فتمحو آثاره كما عفت الأمطار والرياح على آثار رسوم الديار فدرستها يعني أن بكاءه عفى على نوم عينه بين جفونه حتى أنحله وأضناه فصار كربع بال محيل لا يزور عينه النوم بعد فراق صاحبته. ثم لا يلبث طويلاً حتى ينفتح بوجدانٍ متأمل أو بفكر منفعل ليصور لنا ارتداد المحب الواله بنظراته المتواصلة المغروسة في كيان المحبوبة وقد سقط صريعاً مضرجاً بدمائه فقد حل هذا الحب من قلب العاشق المتيم محلاً ما بعده ولا قبله محل بتمثيل الحبيب بكمال صورته المعتدلة القوام والشكل، الوسيطة القد والهيئة على نسق يعز تشبيهه بشبيه أو تمثيله بمثال.

---

(١) ديوان أبي نواس ٤٢/٣ تحقيق غريغور شولر.
(٢) ديوان أبي نواس ص٢٥٥ ط. الغزالي.

وقد تركت هذه المقطوعة أصداء متباينة لدى الأقدمين فالعتابي يعتبر أبا نواس قد سلك فيها وادياً ما سلكه غيره[1] كذلك «ابن الأعرابي» الذي كان يعيب أبا نواس قال عن هذا الشعر حين تلي عليه (فوالله ما سمعت أجود منه لقديم ولا لمحدث . . .)[2].

وفي مرو اختلف اثنان من المتأدبين حول نفس المقطوعة وحين احتكما إلى مسلم بن الوليد أبى حسده لأبي نواس إلّا أن يجانبه الصواب والرأي السديد[3].

هذا، وهناك جانب من غزل أبي نواس في جِنان لم نشر إليه حتى الأن وهو الرسول الذي يعد أحد أركان غزله الهامة. وكان لهذا الرسول في علاقة الشاعر بجِنانِ دور واضح لا يمكن إغفاله حتى جاءت رسائله إليها تحمل طابع تلك العلاقة في ترددها بين المد والجزر أو بين السخط والرضى، كما ترجمت عن إلحاحه الدؤوب في طلبها أيضاً رغم إعراضها عنه حتى شكته لمولاها فسبه وأشهره وحين أبلغه الرسول بسبها له أنشأ يقول مستهيناً بالسب والشتم:

ما عصمتي من شَتْمِ أحبابي ... أعظمُ من شَتْمِهم مَا بِي[4]
لو قِسْتُ بالشتم بلائي به ... أفنيتُ فيه جَيْشَ حُسَّابي
يا حبُّ إني والذي مَسَّني ... منك بأسقامٍ وأوصابِ
لَمْوقِعُ الهجرانِ بين الحشا ... أَنْفَذُ من رشقٍ بِنُشَّابِ

وربما أسعده الرسول بخبر سبها له وهو الذي كان إذا مسه أحد بأدنى ضير هجاه ولم يحتشم حتى إذا كان أباه[5] وعن أبي حاتم قال: (بلغ أبا نواس أن جِنان سبته وقالت: ويلي على المخنث المتكذب في حبه فقال[6]:

جِنانُ تسُبّني ذُكِرتْ بِخَيْرٍ ... وتزعمُ أنّني رجلٌ خَنِيثُ
وأنَّ مودتي كَذِبٌ ومَيْنٌ ... وأنّي لِلّذِي أهوى نَئُوثُ
وليس كذا ولا ردّاً عليها ... ولكنَّ المَلُولَ هو النَّكوثُ
ولي كَلَفٌ ينَازِعُني إليها ... وشوقٌ بين أضلاعي حَثِيثُ

---

(١) العمدة ٢/١٢٢، وأخبار أبي نواس لابن منظور ١/٦٦.
(٢) زهر الآداب ١/٢٤١.
(٣) الموضح للمرزباني ص٤٣٩.
(٤) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٨١.
(٥) المصدر السابق نفسه ١/٤٧.
(٦) ديوان أبي نواس ٤/٣٥ تحقيق غريغور شولر.

رَأَتْ كَلِفي بها ودوامَ عهْدِي فملّتْني كذَا كانَ الحديثُ

وربما استغنى برؤية الرسول إذا عز عليه رؤية جِنان حتى أنه ليجد رسوله بعد عودته من عندها وقد اكتسى طلعة أبهى ونظرة أجمل:

إن تَشْقَ عيني بها فقد سَعِدَتْ عينُ رسولي وفزتُ بالخَبرِ[1]
فكلّما جاءني الرسولُ لَهَا ردَّدتُ شوقاً في طرفهِ نَظري
تظهَرُ في طرفهِ محاسِنُهَا قد أثّرتْ فيه أحسنَ الأثَرِ
خُذْ مقلتي يا رسولُ عاريَةً فانظرْ بها واحتكم على بَصَري

وربما زعم لجِنان، استدراراً لعطفها وتجنباً لغضبها، إن دموعه كانت تنسكب على كتابته وهو يخط إليها رسائله مما يضطره إلى المحو والتغيير تأنقاً وتكلفاً للإجادة:

غضبتْ لمحوٍ في الكتابِ كثيرِ قالت: أرادَ خيانَتِي وغُرُورِي[2]
كتب الكتابَ على خلافِ ضميرِهِ فالمحوُ فيه لكثرةِ التَّغييرِ
لا والذي إن شَاءَ صيّرنا معاً فأدالَ من حزنٍ هُنَاكَ سُروري
ما كان ذاك لِما أتى من قَوْلِها مِنّي ولا للسَّهْوِ والتَّقصيرِ
كتبتْ يميني والدموعُ سواكبٌ صِفَةَ اللّسانِ بما يُجِنُّ ضَمِيرِي
فالمحو من قبل الدموع وإنما تجري دموع العاشق المهجور

وفي ختام حديثنا عن تغزل أبي نواس في جِنان نشير إلى موقف طريف له مع قاضي البصرة محمد بن حفص بن عمر التميمي (وهو أبو ابن عائشة) حين رآه يكلم امرأة في الطريق العام فلامه على ذلك فما كان من أبي نواس إلاّ أن أرسل إليه رقعة فيها المقطوعة التالية[3]:

إن التي أبصرتَها سحراً تكلّمني رسولُ
أدَّتْ إليَّ رسالةً كادت لها نَفْسِي تسيلُ
من ساحرِ العَيْنَيْن يجذبُ خَصْرَهُ رِدْفٌ ثقيلُ
فلو إن أُذنكَ بيْنَنَا حتى تَسَمّعَ ما نقولُ

(١) ديوان أبي نواس ص٢٧٢ ط. الغزالي.

(٢) المصدر السابق نفسه ٤/٥٥ تحقيق غريغور شولر.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٨٦، والأغاني ٢٠/٦٥ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

لَرأيتَ ما استقبحتَهُ من أمرِنا وهو الجميلُ

من هذا العرض لغزله في جنان نتبين أن هذا الغزل كان شاذاً في حياته شذوذ العباس بن الأحنف في عصره. ولكنه متميز عن بقية أنواع غزله في طهره ونقائه حين سار في وجهة لم يطرقها أبو نواس مرة أخرى، فكأنه ما جاء إلاّ ليستكمل به أبو نواس جميع أنواع الغزل المعروفة في زمانه.

غزله في غير جِنان من الجواري والقيان:

إذا استبعدنا ما قاله أبو نواس من غزل في جِنان فإنه لا يبقى لنا من تشبيبه بالنساء ما يساوي الثلث أو أقل من الثلث مما قاله في الغلمان. وهذه حقيقة يقف عليها كل مَنْ يقوم بمقارنة ما قاله في الغلمان بما قاله في الجواري من غير جِنان. وهي مقارنة تنفي أيضاً ما أُشيع عن أبي نواس من أنه كان زير نساء رغم تشبيبه بالغلمان[1] فلعل الأوْلى أن نقول إنه كان زير غلمان، برغم الاثنتي عشرة امرأة التي صرّح بأسمائهن في شعره وهن:

جِنان ـ عنان ـ حسن ـ سمجة ـ عبدة ـ رحمة ـ منى ـ مكنون ـ غريب ـ دنانير ـ قصرية ـ نبات[2]

وبعد الاستقصاء عثرنا على جملة أخرى من الأسماء الصريحة لجوارٍ ذكرهن أبو نواس في شعره وهن: نرجس ـ معشوق ـ الذلفا ـ منيا ـ درة ـ فاتك ـ محببة ـ هذا عدا كثيرات لم يردن بأسمائهن الصريحة وتذكرهن المصادر بالنسبة إلى الموطن كقولهم «قينة بصرية»[3]، أو الذوين والموالي مثل «جارية آل المهلب»[4]، أو بالصفة الاجتماعية اكتفاء بلفظ «قينه»[5] وربما وصفت الواحدة منهن بمهنتها كقولهم «ساقية»[6].

هذا، ويلاحظ أن الكثير من هؤلاء الجواري كن مملوكات للأمراء وللأشراف وكِبار رجال الدولة ممن اتصل بهم أبو نواس فعنان جارية الناطفي، التي كانت تُعدّ من أشعر الناس[7] كانت على اتصال برجال الدولة كالبرامكة وغيرهم[8] حتى أن الرشيد همَّ بشرائها لولا شعر فاضح لأبي

---

(١) ديوان أبي نواس ٤/٨ تحقيق غريغور شولر.
(٢) المصدر السابق نفسه ٤/١.
(٣) ديوان أبي نواس ٤/٥٤ تحقيق غريغور شولر.
(٤) ديوان أبي نواس ١/٨٨ تحقيق فاجنر، وأخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٩٦.
(٥) أخبار أبي نواس لأبي هفان ص٩١، وديوان أبي نواس ١/٩٠ تحقيق فاجنر.
(٦) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢/٩.
(٧) العقد الفريد ٦/٥٩.
(٨) طبقات الشعراء، لابن المعتز ص٤٢١.

نواس فيهـا[1] وكـانت «حسن» جارية جعفـر بن سليمـان[2]. و «معشـوق» جارية لأسمـاء بنت المهدي[3]. و«الذلفاء» جارية للبرامكة وكانت شاعرة تشبب بالرشيد[4] . أما «منيا» فكانت وصيفة للفضل بن سهل بن نوبخت[5] وساقيته[6] . كما كانت «فاتك» جارية لزهير بن المسيب صاحب شرطـة الخلافة[7] وربما كانت «دنانير» جارية البرامكة[8] ، والتي كانت قبل أن يشتريها البرامكة جارية للشـاعـر محمـد بن كناسة[9] من أشهر هؤلاء الجواري كشاعرة وموسيقية حتى أنها أثارت حفيظة زبيدة زوج الرشيد عليها لما كان يبديه من إعجاب بها وحرصه على سماعها في قصور البرامكة[10]

والحقيقة أن الجواري اللواتي شبب بهن أبو نواس لا يكاد يحصرهن عد لأننا كثيراً ما نقع على شعر له في بعض الجواري دون التصريح باسم واحدة منهن أو دون الإشارة إليها بأية صفة أو نسبة أو لقب عدا لفظ جارية أو قينة.

وهكذا فرضت الجواري سلطانها الأخلاقي والاجتماعي والثقافي على غزل شاعرنا، فإذا بنا أمام ظاهرة جديدة لا عهد لنا بها من قبل وهي هذه المناجزات الغزلية في صورة مطارحات شعرية يقف فيها كل من الشاعر والجارية من الآخر موقف الند للند في صراحة وحرية تامتين من غير ما أدنى إحساس بحياء أو تقدير لأي اعتبار أخلاقي أو اجتماعي، وأما أن أبا نواس لم يكن مجدوداً من النساء فلعل هذا ما كان شأنه أيضاً مع الغلمان الذين حلوا محل الجواري كما حلت الجواري محل الحـرائـر من النساء. وذلك أن ـ الغلمان كانوا يشبهون الجواري في المظهر والغاية ولذلك صرنا نعرف لأول مرة في تاريخنا ـ وكما أكد لنا أبو نواس نفسه هذه الحقيقة ـ الجارية الغلامية والغلام المؤنث وكذلك أصبح التوحد في الحب، أو ـ الإخلاص فيه ضرباً من الشذوذ عن القاعدة وليس

---

(١) ديوان أبي نواس ١/٨٣ تحقيق فاجنر.

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٨٢.

(٣) ديوان أبي نواس ٤/٩٠ تحقيق غريغور شولر.

(٤) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٢١٤، ديوان أبي نواس ١/٨٩ بتحقيق فاجنر.

(٥) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢/٢٤.

(٦) ديوان أبي نواس ٤/١٠٧ تحقيق غريغور شولر.

(٧) المصدر السابق نفسه ٤/٦٨.

(٨) تاريخ الطبري ٨/٢٩٧.

(٩) الأغاني ١٣/٣٤٠ وما بعدها ط. الثقافة.

(١٠) الأغاني ١٨/٦٧ ط. الدار، و١٣/٣٤٨ وما بعدها ط. الثقافة.

هو من سمة العصر فأبو نواس يشكو من كثرة عشاق صاحبته التي تتظاهر بالنسك وتبالغ في الترحاب به[1]:

ومُـظْهِـرَةٍ لخـلقِ اللهِ نُسْـكَـا وتـلقـانـي بِدَلٍ وابـتـسـامِ[2]
أتـيتُ فؤادَهَـا أَشْـكُـو إلـيهِ فلم أخـلُصْ إلـيهِ من الـزِّحَـامِ
فيا مَنْ ليسَ يكـفـيهـا خليلٌ ولا ألـفـا خليلٍ كُلَّ عامِ
أظـنُّـكِ من بقـيةِ قومِ مُوسـى فهـم لا يَصْـبـرُون علَى طعـامِ

يكـاد أبـو نواس يتـرجم عن الجـاحظ وصفه لأخلاق الجواري حين قال: (إن القينة لا تكاد تخـالص في عشقهـا ولا تنـاصـح في ودهـا، لأنهـا مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليقتحموا في أنشوطتها)[3].

إن مثـل هذه الجـارية كانت تقف نداً للرجـل لمـا كانت تتمتع به من مواهـب ثقافية وحرية اجتماعية سواء في التعبير الصريح أم الفعل الجريء وهكذا كانت علاقة أبي نواس بهذا الصنف من النساء من نوع جديد غريب لا نستطيع فيها أن نهمل وجود الرجل، ولا أن نتجاهل الأُنثى ولكن مع شيء من التغيير والتحـوير اللذين طرءا على حياة الأُنثى قربـاهـا كثيراً من الـرجل، فكانت تلك المناجزات أو المطارحات الشعرية تعبيراً عن العلاقة الجديدة الغريبة. وهنا لا بد من النص على أن معـظم الجـواري اللواتي سمـاهن لنا أبو نواس في شعره أو سمتهن المصادر القديمة كن من الشـواعـر وربمـا كانت «عنان» جارية الناطفي أشهر هؤلاء الجواري حتى عُدّت أشعر الناس في زمـانها[4] وكان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم[5] يذكر «ابن عبد ربه» أن أبا نواس جلس إلى عنان فقالت: كيف علمك وتقطيع الشعر يا حسن؟ قال: جيد، قالت: قطّع هذا البيت:

«أكلت الخردل الشامي في صفحة خباز»[6] فلما ذهب يقطّعه ضحكت به وأضحكت فأمسك عنها ثم عاد سائلاً لها فقال: كيف تقطعين هذا البيت؟

حَوِّلُـوا عنَّـا كَنـيسَـتـكـم يَا بنِـي حَمّـالـةِ الـحـطَبِ

---

(١) العقد الفريد ٦/٦٤.
(٢) ديوان أبي نواس ص٥٤٢ ط. الغزالي.
(٣) رسائل الجاحظ ٢/١٧١ «كتاب القيان».
(٤) العقد الفريد ٦/٥٩.
(٥) الأغاني ٢٢/٥٢١ ط. الثقافة.
(٦) العقد الفريد ٦/٦٠، وديوان أبي نواس ١/٨٢ بتحقيق فاجنر.

فلما ذهبت تقطعه ضحك أبو نواس . . !

وقد لا تخلو هذه المطارحات من شعر رقيق جميل ففي يوم (دخل أبو نواس على الناطفي وعنان جالسة تبكي وخدها على رزة باب فقال أبو نواس :

بكَتْ عنانُ فجرَى دمعُهَا كاللُّؤلؤِ المُرْفَضِّ من خَيْطِهِ

ويروى : أن عنان أسبلت دمعها .

فقالت عنان والعبرة في حلقها :

فليتَ من يَضْربها ظَالماً تجفُّ يُمْنَاهُ على سَوْطِهِ)[1]

ودخل أبو نواس على الناطفي وعنان جالسة تبكي وقد كان الناطفي ضربها فأومأ إلى أبي نواس أن يحركها بشيء فقال :

عنانُ لو جدتِ لي فَإنِّي من عُمري في أَمَنَ الرَّسُول بِمَا

فردت عليه عنان :

فإن تمادَى ولا تماديتَ في قَطْعك حَبْلى أَكُنْ كمَنْ ختَمَا

فرد عليها أبو نواس فقال :

عَلقْتُ منْ لو أتَى على أنفُس الماضِينَ والغَابرين مَا ندمَا

فردت عليه :

لو نظرتْ عينُها إلى حجَرٍ وَلَّدَ فيه فُتورُها سقَمَا[2]

ولعل الموقف الذي لا نستطيع التجاوز عنه هو ما دار بين أبي نواس وعنان حول خاتم كان أبو نواس استبدل به خاتماً آخر من صديقه أحمد بن خالد . وكانت عنان قد ألفت هذا الخاتم فاتهمت أبا نواس بأنه لا يحبها . وهكذا راح أبو نواس يتوسل إلى صديقه أن يرد إليه الخاتم حتى يبرىء ساحته أمام صديقته :

فدتْكَ نفسي يا أبَا جعْفرٍ جاريةٌ كالقَمرِ الأزْهَرِ[3]

---

(١) المصدر السابق نفسه ١ / ٨٠ .

(٢) الأغاني ٢٣ / ٨٨ ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) المصدر السابق نفسه ٢٣ / ٨٩ .

تعلقتْني وتعلقتُهَا طفلين في المهدِ إلى المكبرِ
كنتُ وكانتْ نتهادَى الهوَى بخاتَمينا غيرَ مُستنكَرِ
حنّتْ إلى الخاتم منّي وقد سَلَبْتِنِي إياهُ مذ أشهُرِ
فأرسلتْ فيه فغالطتُهَا بخاتمٍ في قدّهِ أخضرِ
قالت: لقد كان لنا خاتَمٌ أحمرُ أهداه إلينا سَرِى
لكنه عُلِّق غيري فقد أهدى له الخاتم لا أمْتَرِى
كفرتُ باللهِ وآياتِهِ إنْ أنا لم أهجُرْهُ فَلْيصْبرِ
أوْ فأتِ بالمخرجِ من تُهْمتِي إياه في خَاتَمِنا الأحمرِ
فاردُدْهُ تردد وصْلَها إنّها قُرّةُ عيني يا أبا جَعْفَرِ
فَإنّني مُتّهمٌ عندَها وأنت قد تعلم أنّي بَرِى

تدل هذه الحكاية اللطيفة على ما كانت تبثه الجواري من أمثال «عنان» من مرح وظرف في المجتمع العباسي إلى جانب ترديهن في أحيان كثيرة في الفاحشة والفجور وكذلك كان غزل أبي نواس فيهن يتردد بين النقاء والتسامي، وبين البهيمية والإباحية.

ومن مقارضات أبي نواس الظريفة مع عنان أيضاً أنه سألها يوماً طاقة نرجس كانت بيدها فمنعته، فقال لها ما أقبح البخل ويلَكِ فردت عليه: أقبح من البخل عاشق مفلس. عندئذ قال أبو نواس على البديهة الأبيات اللطيفة التالية يترجم بها عن هذه الواقعة العابرة[1]:

قلتُ لها يوماً ومرتْ بنا أتْرُجَّةٌ في كفها نرجسُ
ما أقبحَ البُخْلَ فجُودي لنا منكِ بما تَحْيا به الأنْفُسُ
فاستضحكت عُجباً فقالت لنا أقبح منه عاشقٌ مُفْلِسُ

وهذه «محبة» جارية محمد بن يحيى بن خالد البرمكي يمتحنها أبو نواس بإلقاء بيت عليها لتجيزه قائلاً:

للحُسنِ فيها صَنيعُ له القلوبُ تُريعُ[2]

---

(١) ديوان أبي نواس ١/٨٦ تحقيق فاجنر.

(٢) ديوان أبي نواس ص ١/٨٩ تحقيق فاجنر.

فقالت مسرعة:

أبُـو نواسٍ خليعُ له الـكـلام الـبـديعُ
وواحـد الـنـاس طُرّاً له أقَـرَّ الـجـمـيعُ

ومثل ذلك ما كان له مع إحدى جواري آل المهلب التي أرسلت إليه يوماً بوصيفة لها فجمشها أبو نواس فكتبت إليه تعاتبه متهمة إياه بالخيانة والخلاعة:

ليس الـفـتـى الـحـر الكـريم مُجَمِّشـاً لرسـولِ حِبَّـةِ قلبـه الـمـرتـاحِ
ذاك الـخـليُّ من الـهـوى وشـروطـه وحـليفُ كل خَلاعـة ومُـزاحِ

فأجابها أبو نواس مكذباً ما رماه به الرسول زاعماً أن له قلباً واحداً يحبها لا قلبين وأن حبها متملك من هذا القلب حتى لا فضل فيه للاشتغال بغيرها:

زعـم الـرسـول بأننـي جَمّـشـتُـهُ كذب الـرسـولُ وفـالِـق الإصْـبَاحِ[1]
إن كنـت جمشتُ الـرسـول فغـافصتْ روحـي أنـامـلُ قابض الأرواحِ
شُغـلي بحـبـكِ عن سواك ولـيسَ لي قلبـان مشـغـولٌ وآخـرُ صَاحِـي
قلبـي الـذي لم يُبـقِ فيه هواكـمُ فضـلا لتـجـمـيشٍ ولا لمُـزاحِ

ومن هذه المطارحات ما كانت تتفوق فيه الجواري على أبي نواس صراحة ومجوناً من ذلك ما يروى من أن أبا نواس كتب إلى قينة يحكي لها قصة حلم جمعهما دون التصريح بالفعل:

إنـي رأيتـكِ في الـمـنـام كأنـمـا أرويتـنِـي من ريق فيكِ الـبـاردِ[2]
وكـأن كفـك في يدي وكـأنّـمـا بتْـنـا جمـيعـاً في فراشٍ واحـدِ
ثم انـبـهـتُ ومـعـصـمـاك كلاهـمـا بيدي اليـمينِ وفي شمَـالِـكِ ساعِـدي

فأجابته القينة مفصلة ما أوجز وموضحة ما اكتفى فيه بالإشارة:

خيراً رأيتَ وكـلـمـا عاينـتَـهُ ستـنـالُـه منِّـي برغـم الـحـاسـدِ
صِلْ من هَويتَ ودع مقـالـةَ حاسـدٍ ليس الحسـودُ على الهـوى بمسـاعِـدِ
يا مَنْ يلوم على الـهـوى أهـلَ الـهـوى هل يسـتـطيع صلاحَ قلب فاسـدِ

---

(١) ديوان أبي نواس ص١/ ٨٨.

(٢) نفسه ص١/ ٩٠ تحقيق فاجنر.

لم يخلق الرحمانُ أحسنَ منظراً من عاشقين على فراشٍ واحدِ
متعانِقين عليهما حُلَلُ الهوى متوسِّدين بمِعْصَمٍ وبساعدِ
. . . . . .
. . . . . .
فنبيت أسعدَ عاشقين تعاطيَا حُلو الحديث بلا مخافة راصدِ

وهكذا هبطت الجواري بالغزل من عليائه[1] حين أصبح تعبيراً مباشراً عن الغريزة النوعية[2] لأنه كان غزلاً مصدره إعجاب موقوت أو هو على الأصح شعر مناسبات[3] رغم رقته وعذوبته وما قد يكون فيه من براعة المعاني والصنعة الشعرية[4] على أن الدلالة الأعمق لهذه المطارحات تكمن في اختفاء المحب الفارس، حين أصبحت المرأة نداً للرجل رغبة وسعياً وتعبيراً. رغبة فيما كان يرغب الرجل أن يناله، وسعياً فيما كان يصطنعه الرجل من أساليب المكائد والمغامرات وتعبيراً في هذا الشعر الفاضح الذي كانت تتفوق المرأة فيه أحياناً على الرجل. وإذن فهذا الغزل أدل على روح العصر وعلى المرأة البغدادية في العصر العباسي من غزل أبي نواس في جنان الذي كان طابعه العام الحديث عن لواعج الهوى وحرقة الأشواق ولوعة الحرمان والأمل في الوصال. فهذه المناجزات والمطارحات صريحها وعفيفها إحدى ثمرات الحياة الحضرية الجديدة وهي وليدة علاقات اجتماعية جديدة أحد طرفيها كانت المرأة الجديدة من الجواري اللائي كان منهن الهنديات[5] والسنديات والكوفيات والبصريات والمصريات والروميات والحبشيات والمكيات والزنجيات والتركيات وتمشياً مع روح العصر رأينا أبا نواس يضفي على محبوبته صفة العالمية أو الأممية ليكون ذلك أجمع لمغرياته وأشمل لشهواته بحيث صوّر لنا تلك الحسناء وكأن جميع نساء الأرض قد اجتمعن فيها وبذلك يكون قد سبق اللورد «بايرون» حين تمنى أن تجتمع كل النساء في امرأة واحدة ليقبلها ويستريح وهكذا جمع أبو نواس في محبوبته كل أنواع الفتنة الموزعة على مختلف نساء العالمين:

أبصرت من حَيْنيَ روميّةْ تقصُر عنها كل إنْسِيّةْ[6]

(١) الشعر في بغداد لعبد الستار الجواري ص٢٠٦. (٢) أمراء الشعر في العصر العباسي ص١٢٤.
(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي للشكعة ص٣٠٥.
(٤) المصدر السابق نفسه ص ٣٠٨.
(٥) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ ص١٨٩.
(٦) ديوان أبي نواس ١٣٢/٤ تحقيق غريغور شولر.

بَصْرِيّة الغُنج وكوفيّة المَنْطِقِ في طاعةِ شيعيةْ
مَكّيّة العَطْف يمانيّة السُغْلمة في شكلِ مَدِينيّةْ
قَصْريّةُ الظّرف شَاميّة الخَلوة في نكْهةِ زنجيّةْ
صُغديّة السّاقَيْن تُركيّة الساعد في قَدِّ طَخاريّةْ
هنديةُ الحاجبِ نوبيّة السفَخُذيْن في زَهْوِ عِبَاديّةْ
حِيريّة الحُسْن كِنانيّة الأردافِ في أَلْيَةِ عاجيّةْ
كأنّها في يوم تبريزها جِنّيّة أو بنتُ جنيّةْ

هٰذه مقطوعة من الغزل المتكلف المصنوع الذي لا ينم عن عاطفة صادقة ولا مشاعر حقيقية وهو ما تحول إليه الغزل المألوف لدينا من العصر الإسلامي عصر العذريين والسليقة العربية وعصر الشاعر الفارس، والمرأة المحصنة الحرة. بل هو غزل تسلية وتزجية فراغ يشغل به الناس أوقاتهم وهم يتسامرون ويتساقون ويتسامعون[1] وهو من الغزل الذي يقوله الشاعر لمجرد الرغبة في القول كشاعر لا بد له من الخوض في مختلف الفنون الشعرية ليختلط الغزل العفيف بالغزل الصريح وغزل الجد بالغزل العابث دون أن نتمكن أحياناً من وضع حد فاصل بينهما هذا إلى ضعف في المضمون وركاكة في الأسلوب وليس أدل على ما نقول من مقطوعة قصيرة يحكي فيها أبو نواس امتناع صاحبته عليه لتمنحه قبلة امتناع رضا وسرور لا امتناع غضب ونفور مؤيدة امتناعها بأحد أمثال العجم «الفرس» التي يعرفها أبو نواس جيداً وهو أن الصبي إذا أطمع بتلبية طلبه مرة كرر الطلب وبعد تعب شديد سمحت له بالقبلة:

سألتها قبلةً ففزتُ بها بعد امتناع وشدةِ التّعب[2]
فقلتُ بالله يا مُعَذّبتي جُودي بأخرى أقْضِي بها أرَبي
فابتسمتْ ثم أرسلتْ مثلاً يعرفه العجمُ ليسَ بالكَذِبِ
لا تعطِيَنّ الصبيَّ واحدةً يطلُبُ أُخْرى بأعنفِ الطّلبِ

كذلك رأيناه يتخذ من القصص القرآني حجة لدحض ما رمى به من خيانة:

أرسلَ من أَهْوى رسولاً لهُ إليَّ والمنسوبُ محبوبُ[3]

---

(١) أبو نواس للعقاد ص١٧٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص٢٧٤ ط. الغزالي.

(٣) ديوان أبي نواس ص٣٦٣ ط. آصاف.

فقلتُ أهْلاً بِكَ من مُرسَلٍ ومِنْ حبيبٍ زانه الطِّيبُ
جَمَّشْتهُ في كِلمةٍ فانْثنى وقال هذا مِنكَ تجريبُ
مثلُك لا يعشقُ مِثلي وقد هامَ به بيضاءُ رُعْبُوبُ
وجاءتِ الرُّسل بِأَنْ آتنا فجئْتُهَا والقلبُ مرعوبُ
قالت تعشَّقْتَ رسولي لقدْ بدتْ لنا منكَ الأعَاجيبُ
ذاكَ وهَذا لك يا غادراً في دفتر الحاصلِ مكتوبُ
مَنْ يأمن الذئبَ على معْزَةٍ أهلٌ لان يَخْفرهُ الذِّيبُ
فقلت في رفق وفي تُؤدَةٍ مقالةً قد قالَ يعقُوبُ
الذئبُ لا يُؤمنُ لكنَّهُ عليه في يُوسُفَ مكْذُوبُ
هم طرحوا يوسفَ في جُبِّهِ عَمْداً وقالوا خانَهُ الذِّيبُ

تقوم التهمة في هذه القصيدة على خيانة أبي نواس صاحبته في رسولها إليه فهو كالذئب الذي لا يؤتمن لكن أبا نواس لم ينكر كونه ذئباً بل جعل من نفسه كذئب يوسف المظلوم الذي اتهم كذباً بأكله . . . !

والحقيقة أنه لا أبو نواس جاد في حبه ولا صديقته غاضبة عليه فالمسألة لا تخرج عن طور المداعبة والمعابثة فهو غزل خالٍ تماماً من جد الحب وحب الجد .

وهذا مثال آخر وفيه يوجه الشاعر التهمة إلى صاحبته لتأخذ هي في الدفاع عن نفسها ولكن بصورة أكثر طرافة وجدة .

نباتُ بنْتِ سباكَ الله من أَمَةٍ كم اعترتْكِ على الدهر المشاغيلُ[1]
كم قد عذلتُ وكم عاتبتُ مجتهداً وقلت لو أخذتْ فيكِ الأقاويلُ
ما أنتِ إلا عروسٌ يومَ جَلْوتِها على المِنَصَّةِ تجْلُوها العطابيلُ[2]
أما البَنانُ فقد أضحتْ مخضّبةً والشعرُ مفْترقٌ بالبانِ مغْسُول
قالت تعَلَّلتُ بالحنّاءِ قلتُ لها ما بالتطاريف بالحّناءِ تعليلُ[3]

---

(١) ديوان أبي نواس ص٣٠٩ ط. الغزالي .

(٢) العطابيل: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق .

(٣) التطاريف: خضاب أطراف الأصابع .

هذي الـتـطاريفُ من غُنـجٍ ومـن عبَثٍ كمـا زعـمـتِ فمـا للطَّرفِ مكْـحُـولُ
قالـت كُحِـلْتُ بعُـذْرِ الـعـينِ من رمـدٍ فقـلت عذراً فمـا للشـعـرِ مبـلولُ
قالـتْ مُطِرْنَـا ولـم تمـطر فقلت لهـا ما بال مِئْـزَرِكِ الـمـصـقـولِ محـلولُ
قالـت بَرِمْـتُ بهِ حمـلاً فأثْـقـلَنِـي هذا الإزارُ. فلمْ حُلّ الـسَّـراويلُ
قالـتْ غُلِبْـتُ على نَفْـسـي فقـلـتُ لهَـا هذا زنـاكِ فمـا هذي الأبـاطـيلُ
زال الـحـمـارُ وكـانَـتْ تلك مُنْـيتَـهُ في الـطين أنّ حمـارَ الـسُّـوء موحُـولُ

في هذه المقطوعة نجد أيضاً تساوي الرجل والمرأة، الشاعر والجارية في المعابثة والمداعبة من غير أن نحس أي أثر قد تخلف عن خيانة الشاعر أولاً والجارية ثانياً لأن المسألة لا تخرج عن كونهـا هزلاً ولهواً فليس هناك غضب جاد يورث مقاطعة المخون للخائن ولا استحياء الخائن من المخون فينكسر أمامه وإنما هو الهزل في صورة مطارحة كلامية بين صديقين أمسك أحدهما بالأخر متلبساً بخطيئة طالما وقع هو فيها. فهي منازلة كلامية بين امرأة جريئة وقاح وشاعر فاجر متهتك لا يأبه لشيء ما دام ما ينزع إليه من أعمال يرضي غروره وفتنته بنفسه وفتنة الناس به من حوله.

أما آخر ما نشير إليه في حديثنا عن غزل الجواري فعبارة عن شكوى الشاعر من حبيب ظالم:

يا ريمُ هاتِ الـدّواةَ والـقـلـمـا أكـتـبُ شوقـي إلَـى الّـذي ظَلَمَـا[1]
غضـبـانَ قد عَزَّنـي رِضَـاهُ ولَـوْ يسـأل ممـا غَضِـبْـتُ مَا عَلِمَـا
فليسَ ينـفَـكُّ منـه عاشـقُـه في جَمْـعِ عُـذْرٍ لغـيرِ ما اجْـتـرمَـا
أظَـلُّ يقـظانَ من تذكُّـرِهِ حتـى إذا نمـتُ كانَ لِي حُلمَـا
علقْـتُ من أتَـى على أنـفسِ الـ ـمـاضـينَ والـغـابـرينَ ما ندمَـا
لو نظرتْ عينُـه إلـى حجـرٍ ولّـد فيهِ فتـورُهـا سقَـمَـا

في هذه الشكوى يقترب بنا أبو نواس من المذهب المألوف للغزل الطبيعي جامعاً بين الرسول والمحبوب وذلك حين دعا الأول بـ «ريم» مركزاً على ظلم المحبوب وقسوته فقد أعجزه رضاه وهكذا غلب أبا نواس استرضاؤه من غير أن يظفر به. فهو شاغله في يقظته وفي نومه. ومن ظلمه أنه لو قتل العالمين طراً لما خالطه الندم ولو سلط نظراته على حجر لأوهنه وأنحله مورثاً إياه السقم والضنى...!

---

(١) ديوان أبي نواس ص٣٧٨ ط. الغزالي.

غزله في الغلاميات:

هذا الضرب من الغزل الجديد مرتبط بظهور هذا الصنف من الجواري ظهوراً قوياً زمن الأمين حين رأت أمه زبيدة شغفة بالغلمان من الخصيان (وابتاعهم وغالى بهم وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره.. ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهن)[1]. فأرادت أن تصرفه عنهم بأن اتخذت له الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية، والبستهن الأقبية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن إليه، فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة وحذا الناس حذوه، واتخذوا الجواري المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات[2].

على أن لهذه الظاهرة جذوراً قبل عصر الأمين. يذكر الطبري أن الخليفة المهدي شوهد في سنة ١٦٩هـ في موكب رسمي وصاحب شرطته أمامه في يده الحربة وابنة المهدي البانوقة[3] تسير بينه وبين صاحب الشرطة في هيئة الفتيان عليها قباء أسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف وقد رفع ثدياها القباء لنهودهما كذلك يذكر أبو علي القالي أنه كان لهارون الرشيد غلامية يعني وصيفة على قد الغلام وكان المأمون يميل إليها[4] ويقول الجاحظ أن الجارية إذا وصفت بكمال الحسن قيل كأنها غلام ووصيفة غلامية[5].

هذا من الناحية التاريخية، أما من الناحية الفنية فالناظر في غزل الغلاميات يجد أنه ليس مقطوعاً عن الجو العام الذي ساد العصر العباسي من إقبال على اللذات والشهوات إقبالاً شديداً وبالنظر إلى أن الغلاميات كظاهرة متأخرة عن ظاهرة الغلمان في الحياة الاجتماعية فإن التشبيب بهن لا بد وأن يكون متأخراً أيضاً عن التشبيب بالغلمان، لأن الأخير مرتبط أساساً بحب الجنس للجنس أو ما يُعرف بالشذوذ الجنسي وهو قديم أيضاً أقدم من العصر العباسي، وهكذا يصبح التغزل بالغلاميات في جملة المستجدات العباسية ويشكل مع التغزل بالغلمان ظاهرة مزدوجة، أساسها طلب اللذة في ظل الرخاء والمتع المادية المتاحة ورغد العيش وكثرة الجواري والغلمان من

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٥٠٨.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٤/٢٢٦ ـ ط. ثالثة ـ نشر دار الأندلس ـ بيروت ١٩٧٨م.

(٣) البانوقة: امرأة (القاموس المحيط).

(٤) الأمالي لأبي عالي القالي ١/٢٢٥.

(٥) رسائل الجاحظ ٢/٩٥ (كتاب مفاخرة الجواري والغلمان).

أرقاء البيوت[1] والعكوف على اللذات من سماع وشراب ونساء وغلمان أيضاً. كذلك قاربت الحياة الاجتماعية في هذا العصر ما بين الغلام والجارية، وكلاهما من أسرى الحروب في المهمة المعيشية، لتتقارب شيئاً فشيئاً أحوالهما السلوكية خاصة إذا عرفنا أن الغلام غالباً ما يكون في السن التي لا تحميه من مغبة السقوط في الهاوية وحين يكون أقرب ما يكون إلى الجارية في مهمته واهتماماته وعلاقاته بمواليه ولداته على السواء.

ولقد جاء اهتمام الأمين بالغلمان خاتمة التحولات البطيئة التي كانت تعمل عملها منذ مطلع القرن الثاني حتى إذا أشرف القرن على نهايته كانت النساء قد بلغن مبلغاً عظيماً من الحرية الاجتماعية ويجيء تقليدهن للغلمان بصفة رسمية على يد السيدة زبيدة المحصلة الأخيرة لتلك الإرهاصات وهكذا فلم يكن التغزل بالغلاميات بعد أن اتخذت الجواري أزياء الغلماء ناجماً عن قرار اتخذه الخليفة ولا جاء نتيجة لرغبة عابرة وإنما جاء تعبيراً عن إحساس نابع من صميم معانيات الشاعر الشخصية واهتماماته.

ولقد بلغ من شيوع هذا الضرب من الغزل أن أبا نواس جعله في مقدمات بعض أماديحه دون مراعاة لشخصية الممدوح. فأبو نواس صاحب اليد الطولى في إشاعة هذا الصنف من الغزل وهكذا وجدنا الجارية الغلامية في شعره تتخذ أزياء الغلمان وتتخلى عن حليها عدة المرأة ولكن دون أن تتخلى عن كونها أنثى. وكنوع من التوفيق جعلها أبو نواس تقوم بمهمة مزدوجة فهي مذكرة ولكنها تصلح للأمرين:

عليَّ عينٌ وأُذْنٌ من مذكّرةٍ موصولةٍ بهَوى اللُّوطيِّ والغَزلِ[2]
كلاهما نحوها سامٍ بهمّتهِ على اختلافِهما في مَوْضعِ العَمل

وقد كرر أبو نواس هذا الخلط في مقدمة مدحة أخرى مدح بها العباس بن الفضل بن الربيع مسبغاً على صاحبته صفات المذكر أيضاً:

نَمّ بما كنتُ لا أبوحُ بهِ على لسانٍ بالدّمع مِنْطيقِ[3]

---

(١) تاريخ العرب (مطول)، لفيليب حتي ٢/٤١٨.

(٢) ديوان أبي نواس ص٤٤٩ ط. الغزالي.

(٣) منطيق: مبالغة في ناطق. هناك اختلافات واسعة حول هذا البيت الموشح: ٤١٥، الشعر والشعراء ٢/٧٩٥، الديوان ط. بغداد ص٤٨٦.

شوقاً إلى حُسْن صُوَرةٍ ظَفِرَتْ من سَلْسبيلِ الجِنانِ بالرِّيقِ[1]
وصيفُ كَأْسٍ مُحدّثٌ ولهَا تيهُ مُغَنٍّ وظرفُ زَنْدِيقِ[2]
تشوبُ ذلاً بعزّةٍ فلَهَا ذُلّ مُحِبٍّ وعزُّ معْشُوقِ
وردفُها كالكثيبِ نِيطَ إلى خَصْرٍ رقيقِ اللحاءِ ممشُوقِ
أمشي إلى جنبها أُزَاحِمُهَا عمداً وما بالطريقِ منْ ضيقِ

لم يكتف أبو نواس بإسباغ صفة المذكر على صاحبته بل تجاوز هذا الحد إلى وصفها أيضاً بوصيف كأس وبأنها محدث لبق وبمغن تياه مفاخر بفنه وحسن صوته، وبزنديق ظريف وتجمع بين ذل العاشق وعز المعشوق وهذا مذهب جديد بل غريب في الغزل لم نألفه من قبل وهو تعقيد للفكرة الغزلية ما كان لغير الغلامية أن تثيره أو تبتعثه من صميم شاعر كان هو الأخر أشبه بغلامياته معقد التركيب حين أصبح يصلح للأمرين كما كانت غلامياته، كل هذا من غير تجاهل لواقع المرأة مما جعله يضفي على غلامياتـه نفس المقاييس الجمالية التقليدية من ردف ثقيل وقد ممشوق وخصر نحيل كأنـه الغصن الـرقيق اللحـاء. وفي صدر مدحـة في الفضل بن الربيع يشعرنا أبو نواس أن الغـلاميات قد شاع استخدامهن في قصور العظماء وهو يقدمهن بأزيائهن المستحدثة وأشكالهن الجديدة على خلاف ما ألفنا من أزياء الجواري وأشكالهن[3]:

ولـقـد تَحُـلُّ بعـقْـوَةَ الـ ألـبـابِ من بقـر الـقـصُـورِ[4]
وبـمـا تُواكـبُـهـنّ ما بين الـرَّصـافـة والـجُـسـورِ
صُورٌ إلـيكَ مُؤَنّـثَـا تُ الـدَّلِ في زِيِّ الـذُّكـورِ[5]
عُطُلُ الـشَّـوى ومـواضـعِ الأسـوار منـهَـا والـنُّـحـورِ[6]
أُرْهِـفْـنَ ارْهَـافَ الأَعِـنَّـةِ والـحـمـائـلِ والـسُّـيُورِ[7]

---

(١) والمعنى أن ريقها عذب كأنه من ماء عين في الجنة لحلاوته وعذوبته.

(٢) في طبعة بغداد ص ٤٨٦ «وصيف كأس محدث ملكاً» وفي آصاف ص٨٩ «وصيف كأس محدث ملك» وفي طبعة فاجنر ١٨٨/١ «وصيف كأس محدثٌ ملك».

(٣) ديوان أبي نواس ص٤٦٥ ط. الغزالي.

(٤) العقوة: المحلة أو وطن القوم. (٥) صور اليك: موائل بأعناقهن.

(٦) عطل الشوى: عطل الأطراف من الحلي. استغناء بجمالها.

(٧) أرهفن: أي ممشوقات من قولك أرهف السيف رققه.

ومُـوقّـراتٍ في الـقُـرا طقِ والـخنـاجـرُ في الخصُـورِ
أصـداغُـهـنّ مُعَـقْـربـا تٌ والـشّـواربُ من عَبـيرِ
مثـلُ الـظّبـاءِ سمَـتْ إلـى رَوْضٍ صوادرَ من غَديرِ

فهؤلاء الجـواري عطل من الحلي مرهفـات القـدود وقد أثبتن الخناجر في الخصور وارتدين المـلابس الفـارسية من قراطق وأقبية وأطلن أصداغهن كما كان يفعل الغلمان في ذلك العصر[1] وخططن مكان الشوارب بالمسك فكن أشبه بالظباء الصادرات عن الغدير مهابة وجمالاً وهكذا فتنت الجواري الغلاميات أبا نواس لأنه رأى في أزيائهن المصطنعة لوناً جديداً من الإثارة غريباً غير مألوف ومحـاولة للكشف عن مجهول في الأنثى المبتغاة ولذلك أقبل على التشبيب بالغلمان ممن كانوا يصـطنعـون أزياء الجـواري ويتشكلون بأشكالها. في هذه الطائفة من المجتمع تعقدت العلاقات الإنسانية وصار الجنس يطلب صنوه سواء أكان الطالب رجلاً أم امرأة والمطلوب هي الجارية في زي غلام مخنث أو الغلام في زي جارية غلامية لنلتقي على الطريق ما بينهما بالجنس الثالث في حين أن المطلوب الحقيقي في الحالين هي الأنثى أو ما يدل عليها وإلاّ لما أسبغ أبو نواس على غلمانه صفات المرأة فقد كان حقه أن يضفي عليهم جماليات تنبع من خصائصهم الذكرية وأن يتجنب كل ما يقارب بين الجنسين بسبب كما كان حقه أن لا يرى في الغلامية مرة امرأة وأخرى غلاماً أو كليهما معاً وفي الغلام المؤنث مرة جارية وأخرى غلاماً أو كليهما معاً. والحقيقة أن هذا الانحراف خلق ما بين الجارية والغلام مبادىء جمالية مشتركة في الزي والشكل والسلوك والوظيفة أو ما يمكن أن نطلق عليه بازدواجية الجنس وهكذا أعجب أبو نواس بهذا الصنف من الجواري الغلاميات من اللواتي تطيل شعور أصداغهن وتعقربه على هيئة العقرب وكذلك كان يفعل الغلمان من الذين يشبهونهن بصورة مقاربة كما يصفهن بالقدود النحيلة المرهفة، وبأنهن يتهادين في قمصهن المزررة مثلما كان يفعل الغلمان من المخنثين. وبعد هذا يسلمنا أبو نواس بصورة طبيعية إلى الغاية وهي أن هؤلاء الجواري الغلاميات هن أناث وذكور، غلمان مخنثون وجوار غلاميات فهن إذن مزدوجات الشخصية أو هن الجنس الثالث الذي نشأ في ظلال الحضارة العباسية:

عذّبـنـي حبُّ غُلَامـيَّاتِ ذواتُ أصْـدَاغ مُعَـقْـربَـاتِ[2]
مُقَـوَّمـاتِ القَـدّ مهضُـومـاتِ يَمْـشِـينَ في قُمْصٍ مُزَرّراتِ

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز، ترجمة عبدالهادي أبو ريده ٢/٢٣١.
(٢) ديوان أبي نواس ص١٦٦ ط. الغزالي.

يَصْلُحْنَ للاطَّةِ والزُّنَاةِ أكْنِي بِوَصْفِهِنَّ عنْ مَوْلاَتِي
تلك التي في يَدِهَا حيَاتِي

فإلا تكن الجارية غلاماً فإن الغلام شبيهها:

غلامٌ وإلاّ فالغلامُ شَبِيهُهَا وريحانُ دُنيا لَذةٌ للمُعَانِقِ[1]

وأيضاً:

مذكّرة مؤنّثةٌ مهاة إذا برزتْ تُشُبِّهها غُلاَمَا[2]

وكذلك قوله في همزيته المشهورة:

من كف ذات حِرٍ في زيٍّ ذِي ذكر لها مُحِبَّانِ لوطيٌّ وزَنَّاءُ[3]

وغير هذا كثير، ولكن ربما اختلط الأمر على أبي نواس بعد أن تشاكلت الأزياء وتشابهت الأشكال وتقاربت النوازع والأهواء:

ضلَّ في وصْفِكَ حُكْمِي وَبِحَقِّ مَا ألَمْ[4]
فَأَبِنْ لِي: أكَعَابٌ أنْتَ أم أنْتَ غُلاَمْ

ورغم هذا كله تبقى للغلامية فتنتها الأنثوية ونوازع الإغراء من خلال سلوكها:

من كف ساقية مُقَرْطَقَةٍ ناهِيكَ من حُسْنٍ ومن ظَرْفِ[5]
نظرتْ بعينَيْ جُؤذُرٍ خَرِقٍ وتَلفَّتتْ بسوالفِ الخِشْفِ[6]
قالتْ وقد جعلتْ تمايَلُ لي كتمايُلِ الماشِي على الدُّفِّ
وجهي إذا أقبلْتُ يشفعُ لي وعذابُ قلبِكَ حسنُ ما خَلْفِي

والغالب أن تكون الغلامية ساقية تقوم مقام الغلام المخنث ولكن دون الانتقال بها من صنف الإناث إلى صنف الذكور:

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢/٩.

(٢) ديوان أبي نواس ص٢٥٠ ط. الغزالي.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٦.

(٤) ديوان أبي نواس ٤/٣٢٨ تحقيق غريغور شولر.

(٥) ديوان أبي نواس ص٦٦ ط. الغزالي.

(٦) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. الخرق: الذي دهش من خوف أو حياء. الخشف: ولد الظبي.

وصـيفـةٌ كالـغـلامِ تصلُحُ للأَ مْرين كالـغُـصْـنِ في تَثَـنِّيهـا[1]
في قُرْطـقٍ زانـه تَخَـرْسُـنُـهَـا قد عقـربَتْ صُدْغَهـا مَدَارِيهـا[2]
كَمّـلهَـا الله ثم قال لهـا لمـا استـتمَّتْ في حُسنهـا إيهَـا
لو قيل للحُسْنِ صفْ محَـاسنَهـا ما اسـطاع ضَعْفـاً بذاك يَحْكِيهـا

وأما كون هذه الجارية «الغلامية» تجمع بين الأمرين فإنما ذلك لمضاعفة متعة الشاعر. وأحد هذين الأمرين طبيعي والآخر حاول أبو نواس أن يلتمس فيه الأمر الطبيعي ولكن بطريقة غير طبيعية. والحق أن الشاعر لم يستطع أن يتجاوز الحد الفاصل ما بين الجارية والغلام ومن أجل هذا كان كل ما أشاد به من جمال هذه الغلامية، هو جمال الجارية... الأُنثى رغم ارتدائها القرطق الفارسي ولوى شعر صدغها على هيئة العقرب كما كان يفعل الغلمان في عصرها[3] وقد حباها الله بجمال تام يعجز الحسن عن محاكاتها، على أنه ربما جاز لنا أن نعتبر الغلامية سواء بمظهرها الخارجي أم بسلوكها الداخلي ظاهرة ثقافية بفرعيها النظري والعملي وهنا لا بد أن نقرر أن أبا نواس كغيره من أبنـاء طبقتـه الاجتمـاعية شاعر محمول بتيار عصره كانت تتدفق في أعماقه أنهاره وأمواجه العاتية لتتلاءم مع استعداده وممارساته فصرنا نراه في غلمانياته وغلامياته مشوقاً بقدر ما هو ممارس فكانت أشعاره فيهما تنبع من صميم وجدانه ويتوخى هو القصد إليها، بل نستطيع أن نقول أنه كان جزءاً من الـظاهرة بل عاملاً مؤثراً فيها بقدر ما كان مفتوناً بها لتجيء أشعاره الغلامية والغلمانية وكأنها وثيقة العصر الوحيدة على معابثات الجيل واهتماماته. يقول أبو نواس من خمرية له في ساقية:

وخـذْ من كفِ جاريةٍ وصـيفٍ رخيمِ الـدَّلِ ملثـوغِ الكـلامَ[4]
لهـا شكْـلُ الإنـاثِ وبـيْنَ بيْنٍ ترى فيهـا تكـاريهَ الـغـلامَ
فأحـيانـا تقـطِّبُ حَاجِـبَـيْهَـا وأحـيانـاً تَثَـنَّـى كالـحُـسَـام

وهذه غلامية أخرى من خدم القصور منسوبة إلى البرامكة مما يدل على أن بذور هذه الظاهرة موجودة قبل خلافة الأمين، فتنت أبا نواس بثدييها الناهدين وحسن جيدها ورونق نحرها قد زوقت أصداغها ولوت شعرها على هيئة العقرب أو النون:

---

(١) ديوان أبي نواس ص١٩١ ط. الغزالي.

(٢) مداريها: مفردها المدرى وهي المشط.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز، ترجمة عبدالهادي أبو ريده ٢ / ٢٣١.

(٤) ديوان أبي نواس ص٦٩٣ ط. الغزالي.

ونـاهـدةِ الثَّـديينِ من خدَمِ الـقـصْـرِ سبتْنِي بحُسْنِ الجِيدِ والـوجـهِ النَّحْـرِ[1]
غُلَامِـيَّةٌ في زِيِّهـا برْمـكـيَّةٌ مُزوَّقـةُ الأصـداغِ مطمـومـةُ الـشَّـعـرِ

والظاهر أن زي الغلاميات أصبح مألوفاً في ذلك العصر فالجاحظ يذكر (أن الجارية إذا وصفت بكمال الحُسْنِ قيل كأنها غلام ووصيفة غلامية)[2]، ولكن أبا نواس يقول إن اصطناع الغلامية زي الغلام ليس لاستكمال أسباب الحسن والجمال لا، بل لأنه ألصق بالفسوق وآكد للآثام، وذلك لم يكن ليتم لها إلّا بعد طول مران وتدريب لتظهر بزي الغلامية من ترجيل شعرها، وإطالة صدغها، وكف كمها إلى الوراء لتبدو زنداها. . . ومن هوايات الغلامية التي تستطيل بها على الجواري معرفتها بفنون اللهو والتسلية فمن شطارة في السلوك والمظهر وتفنن في الغرام وانصراف عن نقر الدفوف كما جرت عادة الجواري إلى اتقان العزف على الطنبور في مجلس الندام وغدوها على ميادين الصوالج[3] كل يوم للعب والتسلية كما يفعل أبناء الجيل من أهل اللهو والعبث والصيد بالسهام والبنادق[4]:

رأتْ زيَّ الـغـلام أتـمّ حُسـنـاً وأدنـى للفـسُـوقِ ولـلأثَـامِ[5]
فمـا زالـت تُصَـرِّفُ فيه حتـى حكـتْـهُ في الـفـعـالِ وفـي الـكـلامِ
تُرَجِّـلُ شعـرَهـا وتُـطيلُ صُدْغـاً وَتَـلْوِي كُمَّـهَـا فعـلَ الـغـلامِ
وراحـتْ تسـتـطيلُ على الـجـوَارِي بفـضـلٍ في الـشَّـطارةِ والـغَـرَامِ
تعـافُ الـدُّفَ تكـريهـاً وفـتـكـاً وتـلعـبُ للمـجـانـةِ بالـحـمَـامِ
ويدعـوهـا إلـى الـطُّنـبـورِ حِذْقٌ إذا دارتْ مُعـتَّـقـةُ الـمُـدامِ
وتـغـدُو للصَّـوالـج كلَّ يومٍ وتَـرْمـي بالـبـنـادِقِ والـسِّـهَـامِ

واضح أن الغلامية أصبحت نموذجاً متميزاً في مجتمع الجواري لا مجرد نزوة عابرة أو مظهر خارجي جذاب طفحت على السطح بصورة تشبه أن تكون فجأة بل وراء ذلك جملة من العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية كانت تعمل في أناة واستمرار ويكفي أن نتذكر ما قاله الجاحظ عمّا

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٦٤ ط. الغزالي.
(٢) رسائل الجاحظ ٢/٩٥.
(٣) الصوالج: المحاجن المفضضة.
(٤) البنادق: كرات صغيرة تتخذ من طين لزج ويرمى بها عن الجلاهق وهي القوس تتخذ من القنا.
(٥) الفكاهة والاثتناس في مجون أبي نواس ص٦٠، وديوان أبي نواس ص٣٧٤ ط. الغزالي.

كانت تحصله القيان من الثقافة الشعرية حفظاً مقداره نحو (عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلاّ عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب في ثواب، وإنما بُنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة)[1]. بل إن الكثير من الجواري أو القيان كن شاعرات[2] ومنهن مَنْ كانت تناقش الأطباء في علومهم[3] أما غلاميات أبي نواس فقد كانت لهن ثقافتان عملية ونظرية. عملية تتلقى فيها الجارية كما يقول أبو نواس على يد قواد محترف يرتزق من مهنة القيادة وأصول الإغراء والغواية. وعن قيان هذا المقين تتلقى كيف تصل الرسائل بين العشاق وبين عشيقاتهم حتى تنضج وتستوي في كمال عودها فتصبح عارفة كيف تعد ولا تفي، أو كما يقول الجاحظ أكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة[4] وهذا ما يقوله أبو نواس شعراً في النص التالي:

من كفِّ ساقيةٍ ناهيكَ ساقيةً ... في حُسْنِ قَدّ وفي ظَرفٍ وفي أَدَبِ[5]
كانتْ لربِّ قِيانٍ ذي مغالبة ... بالكشخ محترف بالكشخ مكتسبِ[6]
فقد رأتْ ووعتْ عنهنَّ واختلفتْ ... ما بينهن ومن يَهْوَيْنَ بالكُتُبِ
حتى إذا ما غَلى ماءُ الشَّبابِ بها ... وأُفْعِمَتْ في تمامِ الجسم والقصَبِ
وجُمِّشَتْ بخَفِيِّ اللَّحْظِ، فانْجمشَتْ ... وجَرّتِ الوَعْدِ بين الصِّدْقِ والكَذِبِ[7]
تَمَّتْ فلم يَرَ إنسانٌ لها شبَهاً ... فيمن بَرَى اللهُ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ

وفي ختام هذا الفصل من حديثنا عن التغزل بالغلاميات نتوقف عند مقطوعة شعرية فيها يطلعنا أبو نواس على اهتمام هذه الفئة من الجواري (الغلاميات) بما يدل على أن سقوطهن لم يكن سلوكاً عملياً خلوا من فكرية أو اجتهاد نزعن إليه نزوعاً يقول أبو نواس:

لقد صُبِّحَتْ بالخيرِ عينٌ تصبَّحَتْ ... بوجهكَ يا «معشوقُ» في كُلِّ شَارقِ[8]
مُقَرْطَقَةٌ لم يَحْنِها سَحْبُ ذَيْلِها ... ولا نازَعَتْها الريحُ فضْلَ البنَائقِ[9]

---

(١) رسائل الجاحظ ٢/١٧٦ (كتاب القيان).

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٤٢٢ وما بعدها.

(٣) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ ص١٩٠.

(٤) رسائل الجاحظ ٢/١٧٥ (كتاب القيان).

(٥) ديوان أبي نواس ص٧٢ ط. الغزالي.

(٦) الكشخ: جمع النساء والرجال لريبة. والكشخان: الديوث.

(٧) جمشت: التجميش المغازلة والملاعبة.

(٨) ديوان أبي نواس ص٢٥٨ ط. الغزالي.

(٩) البنائق: جمع بنيقة لبنة القميص.

تُشَارِكُ في الصُّنْعِ النساءَ وسلَّمَتْ لهن صُنُوفَ الحلْيِ غيرَ المناطقِ
ومطمومةٍ لم تَتَّصِلْ بذُؤَابَةٍ ولم تَعْتَقِدْ بالتَّاجِ فوقَ المفَارِقِ
كأنَّ مخَطَّ الصُّدْغِ فوق خُدُودِها بَقِيَّةُ أنقَاسٍ بإِصْبعِ لائِقِ[1]
ندتْهُ بماءِ المسكِ حَتى جرَى لهَا إلى مُسْتَقَرٍّ بينَ أذنٍ وعاتِقِ
غلامٌ وإلّا فالغُلَامُ شَبيهُهَا وريحانُ دنيا لذّةٌ للمُعَانِقِ
تجَمَّعَ فيها الشَّكْلُ والزيُّ كلُّهُ فليس يُوَفِّي وصفَها قَوْلُ ناطِقِ

هذا، وفي بعض نشرات الديوان[2] هناك بيتان زيادة على ما ورد في طبعة الغزالي هما:

فطانَةُ زنديق ولحظةُ قينة بعينِ الذي تهوى وُمْنيَةُ عاشقِ
وتقطيبُ سِجْنِيٍّ وتكريهُ شَاطرٍ ونظرةُ جِنّيٍّ ولحظُ منافقِ

إذا أمعنا النظر في هذه المقطوعة وجدنا أبا نواس قد جمع فيها خلاصة عجيبة لفكرية وخلقية هذه الفئة الفاسقة الذكية من الجواري بكل خبراتها العملية في ميدان الإغواء والإغراء وبكل اهتماماتها الثقافية التي أطلعنا «الجاحظ» على جانب مهم منها «فمعشوق» وهو اسم جارية أسماء بنت المهدي التي أدار أبو نواس مقطوعته الشعرية عليها قد خالفت بزيها الغلامي زي الأعرابية فهي مقرطقة بذلك الثوب الفارسي، فلا ريح تنازع ذيلها الطويل وهي تجره خلفها كما تخلت عن حليها إلّا المناطق تشد بها على خصرها وقصت شعرها مع اصطناع الطرر والأصداغ كما كان يفعل الغلمان، ولم تزين مفرقها بتاج مرصع على عادة النساء، كما دعت هذه الجارية اللائق «الكاتب» ليكتب على صدغها بماء المسك، وأن يخط حيث مستقر تلك الكتابة بماء الغالية بين أذنيها وعاتقها خطا حتى أصبحت في تمام جمالها وبهائها ريحان الدنيا ولذة للمعانق يعجز الناطق عن وصفها وهي شبيه بالغلام أو كان هو شبيهها.

هذا من جهة الجانب الجمالي، أما من جهة الجانب الثقافي أو الفكري أو الأخلاقي فيظهر لنا في وصف أبي نواس لهذه الغلامية بالزندقة وأن لحظها مخالف لما في قلبها هو عين ما قاله الجاحظ في «رسالة القيان» من أن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناصح في ودها.

وهكذا تظل الجارية الغلامية تتقلب في أحوال عجيبة حتى أنها لتصطنع القسوة أحياناً فترسم

---

(١) المخط: المثبت. الأنقاس: جمع نقس وهو المداد. اللائق: من لاق الدواة أي أصلح مدادها أو هو الكاتب.
(٢) ديوان أبي نواس ٤/٩١. تحقيق غريغور شولر، وص٣٨٧ ط. آصاف.

على وجهها جهامة السجان وممانعة العيار فيا لها من خبيثة شاطرة تعيبى عشاقها خبثاً وشراً، ويا لها من منافقة شريرة كأنها أحد الأبالسة.

ولعله يكون قد اتضح لنا أن غزل أبي نواس في الجواري من غير جِنان والغلاميات منهن بشكل خاص، قد انحرف به أبو نواس انحرافاً شديداً عن الغزل الطبيعي الذي مثله ما قاله في جِنان، وذلك لما ضمن هذا الغزل من هزل وعبث تجاوز به حد الشذوذ، حتى أنه ليندر أن نجد شاعراً آخر أولى طائفة الغلاميات ما أولاهن أبو نواس حتى ظهر وكأنه المبتكر الأول والأخير لهذا الضرب من الغزل.

غزلسه في الغلمـــان:

إن غزل أبي نواس في الغلمان لا يمثل قمة شذوذه فحسب بل هو قمة شذوذ العصر لأنه أخلى الغزل من موضوعه الأصلي وهو المرأة لينحرف به إلى التعبير عن علاقة شاذة منحرفة. ومعنى هذا أن للغزل في الغلمان وجهين أحدهما اجتماعي والأخر فني. والأول متقدم على الثاني بدليل أن هذا الشذوذ كان معروفاً عند كثير من الأمم القديمة.

هذا، ولم يثر فن من فنـون أبي نواس الشعرية ضجة كالضجة التي أثارها غزله في الغلمان وذلـك لسببين اثنين: الأول، كثرة هذا الغزل كثرة بالغة لم نصادفها عند شاعر آخر حتى قيل أن الأمين منعه من التشبيب بالغلمان بعد أن أكثر القول فيهم[1] كما سبق أن منعه من شرب الخمر وأمره بوصف الأطلال. الثاني، أن أبا نواس يطالعنا من خلال هذا الغزل الشاذ كما لم يطالعنا غيره من الشعـراء بجدلية الدفاع عن شذوذه، مع الازراء بما يتناقض مع هذا الشذوذ من قيم وأعراف ومن غزل طبيعي أيضاً، حتى لقد أزرى بالمرأة باعتبارها تحتل موضوع الغزل الطبيعي في مواجهة الغلام موضوع الغزل الشاذ، ومثل هذه الجدلية لم تصادفنا في غلامياته (أي غزله في الغلاميات) التي تمثل حالة شاذة أيضاً ولكنه لم يتجاوز بها المرأة إلى الغلام، بل لقد لجأ إلى التوفيق بينهما فيما دعوناه بالجنس الثالث.

أما عن كثرة هذا الغزل ووفرته فيتبدى لنا من خلال كثرة أصحابه من الغلمان على صواحبه من الجـواري، حتى أني عددت له أكثـر من ثلاثين اسماً من الغلمان، هذا عدا مَنْ لم يسم مكتفياً بإطلاق بعض النعوت عليهم، في حين لم تتجاوز أسماء صواحبه من الجواري العشرين عداً.

وفيما يلي بيان بأسماء هؤلاء الغلمان مستخلصة من ديوانه بمختلف طبعاته ومن كتابي أخبار

---

(١) الذخيرة لابن بسام: قسم ثان ـ المجلد الأول ص١٢٨.

أبي نواس لابن منظور وأبي هفان: ابن فورك ـ اللهبي ـ جندب ـ عبدالله أو أبو محمد أو ابن نجاح أو مظفر ـ موسى ـ رحمة ـ علي ـ درير محمد أو أحمد ـ ابن مسعدة ـ سعيد ـ عبدان ـ حمدان ـ ليث ـ فضل ـ عمرو ـ عبويه أحمد الكاتب ـ علي (أو أبو حسن) ـ أحمد بن عبدالوهاب الثقفي ـ حسن ـ تولب ـ سعد الفلك أبو القاسم (وقد عرفه محقق الديوان برواية الصولي بقوله: لعله يقصد أبا القاسم بن الحسن بن سهل)[1] ـ العروضي عبدالله ـ محمد بن سيار ـ جمال الكوفي ـ أحمد بن أبي صالح ـ غلبون الصفدي ـ محمد بن إسماعيل بن صبيح ـ ابن اسطفوس النصراني ـ المفضل ـ يعقوب من أصحاب الخرسي[2] ـ إسحق ـ كوثر ـ عمران بن عمروه ـ بكر ـ موسى.

هذا، وهناك أمر هام جداً هو أن البيئات التي كان أبو نواس يجوس خلالها بصنعة شذوذه ومهنة انحرافه كادت تستغرق في جميع الطبقات الاجتماعية في عصره. فمن هؤلاء الغلمان التلميذ في المكتب، كقوله في أحدهم:

إن في المكتبِ خِشْفاً جُعِلَتْ نفسي فداهُ[3]

وفي آخر، يصف إهماله في واجباته المدرسية، وما ناله من عقوبة على يد معلمه حفص، مظهراً عطفه عليه:

إنني أبصرتُ شخصاً قد بدَا منه صدودُ[4]
ذاك في مكتبِ حفصٍ إن حفصاً لسعيدُ
لم يزلْ مذ كان في الدَّرْسِ عن الدرسِ يحيدُ
كُشِفَتْ عنه خزوزٌ وعن الخَزِّ برودُ
ثم هالُوهُ بسيرٍ ليّنٍ ما فيه عودُ
عندها صاحَ حبيبي يا معلمْ لا أعودُ
قلت يا حفصُ آعفُ عنهُ انّه سوف يُجيدُ

ومن الغلمان الذين كان لهم دور ظاهر في غزله الشاذ كُتّاب الدواوين، من ذلك قوله من مقطوعة في أحدهم يذكرنا بإحدى مقطوعاته التي قالها في جِنان حين اتهمته بالخيانة، لما رأته من

(١) ديوان أبي نواس ص٩٢٩ ط. بغداد.

(٢) الخرسي: نسبة إلى خراسان. يقال خرسي وخراسي وخراساني.

(٣) ديوان أبي نواس ط. آصاف ص٤٠٤، و٤/١٩٤ بتحقيق غريغور شولر.

(٤) ديوان أبي نواس ط. آصاف ص٤١٨.

محو في أحد كتبه إليها، فأرسل يدافع عن نفسه[1]، وهذا هو يكرر الموقف نفسه لولا الاختلاف بين جِنان العفة، وغلام فاسد سب أبا نواس كما سبته جِنان، ولكن أبا نواس يعترف للغلام بالبراعة معاتباً إياه في رفق وأناة، أو لنقل إنه يداعبه، حين لم يول هذا الكاتب أبا نواس ثقته، وإذن فأبو نواس في مقطوعته التي قالها في جنان كان جاداً لأنه كان يصدر فيها عن عاطفة صادقة، في حين لا يخرج في موقفه مع الغلام عن حد اللهو والمعابثة والمداعبة:

يا كاتباً كتب الغداةَ يسُبّني ... مَنْ ذا يطيق براعةَ الكُتّابِ[2]
لم ترضَ بالاعجامِ حين كتبتَه ... حتى شكلتَ عليه بالإعرابِ
أخشيتَ سوءَ الفهم حين فعـ ... ـلت ذا أم لم تشقْ بي في قِرَاةِ كتابِ
لو كنتَ قطّعتَ الحروفَ فهـ ... ـمتُها من غيرِ وصلِكهُنَّ بالأسبابِ
فأردت إفهامي فقد أفهمتَنِي ... وصدقتَ، فيما قلتَ، غيرَ مُجَابِ

وتتكرر مقطوعاته في كُتّاب الدواوين كثيراً فمن ذلك مقطوعة يقول في مطلعها، وقد غاب عن ذهنه اسم صاحبه أوانه لا يعرفه على الأصح:

يا ذَا الذي لستُ أدري ما اسمهُ بأبي
مالي ومالكَ قد هَيّجْتَ بلْبالي[3]
أحببتُ من حبكَ الديوانَ يا أملي
ولم يكن حُبّيَ الديوانَ من بالي

وفي كاتب آخر يقول ناعتاً إياه بزين كُتّاب الدواوين وفيلسوف الخرد العين. هكذا نرى أبا نواس لا يستطيع أن يستبعد المرأة وما قيل فيها وما جرى الغزل في تقريظها وتمجيدها من غزله في المذكر بل يستعير من الغزل المؤنث، وربما أضفى على أصحابه من الغلمان صفاتِ صواحبه من القيان والجواري[4]:

يا زَيْنَ كُتّاب الدواوين ... وفيلسوفَ الخُرّدِ العِينِ[5]

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٩٣.

(٢) ديوان أبي نواس ٤/١٥٩ بتحقيق غريغور شولر.

(٣) المصدر السابق نفسه ٤/٣٠٨.

(٤) ديوان أبي نواس ص٩٣٢ ط. بغداد.

(٥) الخرد: جمع خريدة وهي المرأة البكر الحسناء. والعين: جمع عيناء وهي ذات العينين الواسعتين.

يا فتنةً سيقتْ إلى فِتْيَةٍ عُذّابِ كتاب مساكين

هذا، وربما كان الشيء الجديد الظاهر لنا من هذا الغزل هو شخص المتغزل فيه من مهنة حرفية، أو طبقة اجتماعية أو صفة شخصية، لأن كثرة مَنْ سمّى لنا أبو نواس من الغلمان تمنع أخذ الكثير من غزله فيهم مأخذ الجد، خاصة أن بعضهم لم يكن يعرفه، فهي إذن بدعة[1] حملها إلى الشاعر العصر العباسي فأولع بها الشاعر أيما إيلاع، لأنها جاءت موافقة تماماً لمزاجه الشاذ الغريب ونشأته المريبة وعدم مبالاته بأي شيء إلّا مصلحته ولذته ما دام يقدر على أن يكون لا أباليا، وهكذا مضى يتلقط غلمانه أين وقع عليهم، لا يضيره ضائر ولا يزجره رادع، مداعباً ومماجناً ومخابثاً، يذكر «ابن منظور» أن أبا نواس دخل إلى ديوان الخراج وهناك التقى بغلام ماجن ظريف، فأخذ قلمه وكتب إليه: (تحبني كما أحبك؟ فكتب الغلام لا. وفطنَ صاحب المجلس له فلم يسع الصبي إلّا أن زاد لفظي اله إلا هو. فعجب أبو نواس من فطنته فقال فيه على الفور:

ومُسْتَمِدٍّ من الدواة وما يشغَلُه القوم بالذي فَاهُوا
يكتب لي لا فإن هُمُ فَطِنُوا زاد عليها الهَ إلّا هُو[2]

وإذا كانت القصة محبوكةً للإطراف والإمتاع فإن البيتين في مقام الحكاية أكثر إمتاعاً وإطرافاً.

هذا، ولم يكن أبو نواس يتورع عن مطاردة الغلمان في أي مكان وبحضور مَنْ كان، يذكر ابن منظور أيضاً، أن إسماعيل بن صبيح الذي تولى ديوان الرسائل بعد البرامكة رغب إلى أبي نواس أن يدخل على ابنه محمد الذي تولى ديوان الرسائل من بعده حتى يحدثه وينشده، وكان محمد فتى أمرد حسن الوجه، فكان أوّل ما أنشده أبو نواس من الشعر ما لا نستطيع روايته ومنه هذا البيت الفاضح أيضاً:

بأبي أنْتَ من بديعِ جمالِ فاقَ حسْنَ الوجوهِ حُسْنُ قَفَاكَا[3]

وهذا غلام صيرفي أجاد أبو نواس استغلال مهنته حين يشيه كفه والدينار الذهبي مستقر فيها بنرجسة مطلولة بالندى، حريص عليها مجتنيها من مغبة القطاف:

إذا استقدَ الدينارَ شبّهْتُ كفَّهُ لدى صُفرةِ الدينارِ في وضْحِ الكَفّ[4]
بنرجسةٍ أضحتْ وقد طَلَّها النّدا شفيقٌ عليها مُجْتنيها من القَطْفِ

---

(١) أبو نواس الحسن بن هانيء للعقاد ص١٧٢.
(٢) مختار الأغاني ٣/٩٢.
(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢/١٥.
(٤) ديوان أبي نواس ص٤٢٩ ط. آصاف.

وفي مثال آخر جعل صاحبه الصيرفي تذل له الدنانير لأن بهاءه غلب على بهائها. وهو معنى طريف مبتكر أوحت به إلى الشاعر مهنة الغلام:

يا صارفياً تذلُّ صاغرةً لك الدنانيرُ من تلألُ ليكا[1]

بل لقد بلغت الجرأة بأبي نواس أن اتخذ من المساجد مسرحاً لعملياته الغلمانية كقوله في غلام وضيء كان يصلي إلى جانبه:

بحَرْبةِ مُقلتيكَ أردت ذَبْحِي وفتكةِ مقلتيكَ بغير جرحِ[2]
فإذ بِدَمي أردتَ تُقى ونُسْكا فَلِمْ ضَحَّيْتَ بي من قبلُ تَضْحِي

ولم يكن أبو نواس يفرق بين الحانة والحانوت والخمّارة والدير، وبين المسجد الجامع ففيها جميعاً كان ينصب شباكه ويخاتل فرائسه حتى أن المسجد الجامع ليبدو له بما ضم من مصلين معرضاً للفتنة والجمال أشبه بالبستان:

كأنَّ المسجدَ الجامعَ عندَ الليلِ بستانُ[3]
وفيه من طريفِ النَّبْت والأزهارِ ألْوانُ
له في خَدِّه خالٌ به الألبابُ فُتَّانُ
وقد جَرَّعَني كَأْساً لها في القلب نيرانُ

بل إنه يذكر باللفظ الصريح أنه كان يوقع ضحاياه بأسلوب مخاتلة الصائد في المسجد الجامع[4]:

رأيتُ المسجدَ الجامعَ قُفّاعة إبليسِ[5]
فكمْ في الصَّحْنِ من قَلْبٍ كليمِ الجرحِ مخلُوسِ
بعثْنا في سبيلِ الغيِّ أفواجَ الكراديسِ[6]
فَكُرْدُوسٌ لعمّارٍ وكردوسٌ لعبدُوسِ

---

(١) ديوان أبي نواس ٤/ ٢٧٩ تحقيق غريغور شولر. (٢) المصدر السابق نفسه ٤/ ١٨٩.

(٣) ديوان أبي نواس ص٧١١ ط. الغزالي.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٧٢٣.

(٥) قفاعة: القفاعة: شيء يتخذ من جريد النخل ثم يقذف به على الطير فيصاد والمراد عريشه.

(٦) الكراديس: القطع العظيمة من الخيل.

وإذا كان أبو نواس يصدم مشاعرنا الدينية والأخلاقية بما يثيره نحو المسجد الجامع من شعر هابط فإننا لا نملك أنفسنا أحياناً من الضحك وهو يرسم بعض الصور العابثة ففي مقطوعة مكونة من ثلاثة أبيات يرسم لنا صورة مضحكة وهو يجمش غلاماً في مسجد حين أخذ يفتش عن حذائه تحت الغلام وهو عارف أنه ليس تحته مدلاً بهذا الضرب من العبث واللهو الذي لا يقدر عليه أحد غيره وهو يفعل كل هذا العبث حتى تلامس رجله رجل الغلام:

أُزاحِمُهُ إذا صلّى لتمسحَ رجلُه رجلي[1]
واطلبُ تحتَهُ نَعْلِي وما إن تحتَهُ نعلِي
فهل أحدٌ بما جَمّشْتُ جَمّشَ شادِناً قبلِي

فهذه خطرات نواسية معروفة، والجاحظ نفسه أدرك أن أبا نواس وغيره من الأدباء والظرفاء لم يكونوا جادين في كل ما قالوه في الغلمان[2] بالرغم من أنهم أجادوا الوصف. وفي نموذج آخر يروي لنا أبو نواس قصة أمرد ناسك كان يتردد على المسجد للدرس والتحصيل ظل يتنقل به أبو نواس من علم إلى علم حتى أوقعه في حبائله[3] أكثر من هذا وجدناه يشبب بمحمد بن إسماعيل بن صبيح أثناء الطواف حين حج سنة ١٩٠هـ[4].

لم يُنْسِني السعيُ والطَّوَافُ ولا الدّاعونَ لما ابتهلْتُ وابتَهَلُوا[5]
قَضيبَ بانٍ إن قام ينخزِلُ وإن تولّى فكلُّه كفَلُ
مَيْسانُ من حيثُ ما عطفْتَ لهُ حيّاكَ وجْهٌ بحُسْنِهِ المثَلُ
تخال خدّيْهِ لاحمرارِهِما يُفَتّحُ الوردَ فيهما الخجَلُ
تراهُ كسلانَ من تساقطِهِ وما بهِ غيرُ نعمةٍ كسَلُ
يَجِلُّ أن تلحقَ الصفاتُ بهِ فكلُّ حسنٍ لحسنه خوَلُ

بل لقد شبب أبو نواس بابن صاحب المسجد وذلك حين قدمه أبوه للصلاة وقرأ: (أرأيت الذي يكذب بالدين..)، فقال أبو نواس مشبباً بالغلام:

---

(١) ديوان أبي نواس ص٩٢٨ ط. بغداد.
(٢) رسائل الجاحظ ٢/١٠٥.
(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٧٥.
(٤) أخبار أبي نواس لأبي هفان ص٩٨.
(٥) ديوان أبي نواس ٤/٣٠٢ تحقيق غريغور شولر.

وقَـرا مُعْـلنـاً ليصـدعَ قلبـي والـهـوى يصـدعُ الـفـؤادَ السّـقِيمـا[1]
أرأيتَ الـذي يُكَـذّبُ بالـدّينِ فذاك الـذي يَدُعُّ الـيتـيمَـا

وكقوله أيضاً في غلام كان يصلي بجماعة مضمناً غزله بعض معاني القرآن الكريم وألفاظه كما فعل في البيتين السابقين:

ولـم أنس ما أبـصـرتـهُ من جمـالـهِ وقـد زرتُ في بعض الـليالِي مُصَـلاَّهُ[2]
ويقـرأُ في الـمـحـرابِ والنـاسُ خلفَـهُ ولا تقـتـلِ الـنـفسَ الّـتـي حرَّم اللهُ
فقـلتُ: تأمّـلْ ما تقـولُ فإنـهـا فعـالُـكَ يا مَنْ تقـتـلُ الـنـاسَ عينـاهُ

ومثلما شبب أبو نواس بأبناء علية القوم فإنه لم يستنكف من التشبيب بالخدم[3] وكذلك فعل في المديح.

يقول في خادم لإسماعيل بن سهل النوبختي بعد أن اختلس منه قبلة فمسحها الغلام بكمه:

يا ماسـحِ الـقـبـلة من خدّهِ من بعـدِ ما قد كان أعـطاهَـا[4]
خشـيتَ أنْ يعـرفَ إعـجـامَـهـا مولاكَ في الـخـدِّ فيقْـرَاهَـا
ولـوْ علِمْـنَـا أنّـه هكـذَا كُنّـا إذَا بُسْـنَـا مسـحْـنـاهَـا
فصـار فيهـا رسـمُـهـا باقـياً يعـرفـهـا مَـنْ يتـهـجّـاهَـا
أو لا، تركـنـاهَـا عَلى حَالِـهـا ولامُـهـا منْـهـا محـوْنـاهَـا
فكـانَ باقـي الاسـمِ لي قبّـةً بالـفـتـحِ في خدّك مجْـراهَـا

فهـذا غزل مدني وليد حضـارة جديدة جعلت الجمـع بين الأجنـاس المختلفة وبين الإناث والذكور من السهولة واليسر بحيث هيأ لأمثال أبي نواس مـن العابثين والمجان أن يحملوا على الغزل كما عرفناه في العصرين الجاهلي والإسلامي ما ليس منه في شيء. وقد يكون كوثر خادم الأمين أشهر مَنْ تغزل فيهم أبو نواس من الخدم، خالطاً غزله بشيء من الخوف والحذر نظراً إلى مكانة كوثر من الأمين:

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢/٥٣.
(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢/٥٣.
(٣) ديوان أبي نواس ٤/١٤٨ تحقيق غريغور شولر.
(٤) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

أصبحت صَبّاً ولا أقولُ: بمن من خَوْف من لا يخافُ من أَحَدِ[1]
إنْ أنا فكّرت في هواي لهُ حسستُ رأسي قد طار عن جَسدِي
إنّي على ما ذكرتُ من فَرقٍ لا آمِلُ أنْ أنالَهُ بيَدِي

والظاهر أنه كانت لأبي نواس هواية عشق غلمان القصور من الخدم. يقول في غلام يصفه بأنه شادن أي ظبي صغير، ممتدحاً مرباه حيث نشأ في رياض النعيم مشبهاً إياه في الحسن بالهلال:

وشادنٍ في القصورِ مَثْواهُ وفي رياضِ الجِنَانِ مَأْواهُ[2]
شبّهتُه بالهلالِ حين بدا فقلتُ ربّي وربُّك اللهُ

وفي مقطوعة أخرى يكتشف أبو نواس عن ضرب من الشقاوة يعرف بها المجان والعابثون وهي، انتهاز غفلة الأهل والحراس حتى ينقضّ الذئب على الفريسة:

وا بأبي ظبيٌ بهِ مسْحَةٌ مذ شبّ في بغدادِ مَأْواهُ[3]
رُبِّي بقصرِ الخُلْدِ في نعْمةٍ حبَاهُ بالنِّعمةِ مَوْلاهُ
أغفلَهُ البوابُ من شِقْوتي فجاءني يضْحَكُ عِطْفَاهُ
ومرّ للحينِ بنا ضَحْوةً فصادَ منّي القلبَ عيناهُ
فصرتُ للشّقوة في فخّهِ كطائرٍ قُصَّ جناحَاهُ
أسْقمَ جسمِي وبرَى مُهْجَتِي وسلَّ مِنّي الروحَ صُدْغَاهُ

وواضح أن الغلام القصري هو صنو الجارية القصرية كما عرفنا أبو نواس، فهذا الغلام من مولدي قصر الخلافة وهو غلام بغدادي له مثل ما لأهل بغداد وأهل القصور خاصة من الرقة والخفة والقدرة على إيقاع عشاقه في حبائله...!

وكما كانت جميع مَنْ تغزل أبو نواس بهن من الجواري، كذلك كان جميع غلمانه من أبناء الموالي من الروم والفرس والنبط أو العباديين وهم جميعاً في حكم الرقيق والخدم من سقاة الحانات وغيرهم.

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٢١٩.

(٢) ديوان أبي نواس ٤/١٥٢ تحقيق غريغور شولر.

(٣) المصدر السابق نفسه ٤/١٥٣.

وهكذا وجدنا بين غلمانه المسيحي واليهودي[1] وحتى يضفي أبو نواس على فنه الطرافة والخلابة وجدناه يتمادى في غزله إلى أن سوغ صحة دين الغلام الذي يتغزل به لينبذ دينه في سبيله، لولا خوفه من الخليفة الرشيد، قارناً ما بين جمال هذا الغلام وفتنته وبين مذهبه وعقيدته ليكون ذلك أكثر إغراء لأبي نواس:

باكْرتُها من كفِّ أغيدَ شادنٍ ... حَسَنِ التَّنَغُّمِ فوق سُؤْلِ العَاشقِ[2]
مُتَعَقْرِبِ الصُّدْغين، في لحظاتِهِ ... فِتَنٌ لها مقرونةٌ لبوائقِ
متخرسنٍ دينُ النّصارى دينُه ... ذي قُرْطقٍ لم يتّصِلْ ببنائقِ
لَبِقٍ بديعِ الحُسْنِ لو كَلَّمْتَهُ ... لَنبذْتَ دينَكَ كُلَّهُ مِنْ حَالِقِ
واللهِ لولا أنّني مُتَخَوِّفٌ ... أنْ ابْتُلَى بإمامِ جَوْرٍ فاسقِ
لَتبعْتُه في دِينِهِ ودخَلْتُهُ ... ببصيرةٍ فيه دُخُولَ الوامِقِ
إنّي لأعلمُ أنّ ربِّي لم يكُنْ ... لِيخُصَّهُ إلاّ بدينٍ صَادقِ

والملاحظ أن أبا نواس لم يجنح إلى التمادي في غزله بغلام يهودي جنوحه في غلمان النصارى[3] بل لقد أزرى أكثر من مرة في خمرياته باليهود وما يضمرون من سوء نية[4] والمعروف أن معظم الجواري والقيان وعامة المملوكات وخدم القصور وسقاة الحانات من النصارى وهكذا ميز أبو نواس في غزله الغلماني بين أهل الديانات كما ميز بين الأمم والأجناس أيضاً إن بالنص لفظاً أو بذكر العادات والتقاليد والطوابع. فالغالب على أزياء غلمانه هي الطوابع الفارسية مع النص كثيراً على جنس الغلام أو ديانته. فهو عبادي مسيحي:

وربّ مُخَصّبِ الأطرافِ رَخْصٍ ... مليحِ الدّل ذِي وجْهٍ صبيحِ[5]
ظفرتُ به ونَجْمُ الصبحِ بادٍ ... عبادياً على دينِ المسيحِ

أو هو نصراني بأزياء فارسية خراسانية:

متخرسن دين النصارى دينه ... ذي قرطق لم يتصل ببنائق[6]

---

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢/٦٠.
(٢) ديوان أبي نواس ص٢٢٠ ط. الغزالي.
(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢/٦٠، ٦١.
(٤) ديوان أبي نواس ص٦١ ط. الغزالي.
(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٦٤.
(٦) ديوان أبي نواس ص٢٢٠ ط. الغزالي.

أو هيتي، أي من أهل هيت[1].

من أهلِ هيتٍ، سَخِيِّ الجِرْمِ، ذي أَدَبٍ له أقولُ مزاحاً هاتِ يا هيتي[2]

وربما دل عليه بشارة أهل الذمة، من ذلك لبس الزنار[3] كقوله:

يا عاقدَ الزُّنار في الخَصْرِ بحرمةِ الحانةِ والفهرِ[4]

و: من كفِّ مختصرِ الزُّنارِ، مُعْتَدلٍ كغُصْنِ بانٍ تَثَنّى، غيرِ ذِي أَوَدِ[5]

وقد يسمي ببني جنسه وبعض لوازم زينته، فهو عبادي ونصراني مستدلاً على ذلك بأن عيده الرسمي هو يوم الأحد. تمييزاً له عن المسلمين وعن اليهود:

يَسْقيكَها منْ بنِي العبادِ رشَأٌ منتَسِبٌ عيدهُ إلَى الأَحدِ[6]

أو هو فارسي من نسل الملوك:

وساقٍ، غريرِ الطرف والدّلِ فاتنٍ ربيبِ ملوكٍ كانَ والدُهمْ كسرى[7]

وقد يعمي ذلك كله بنفي العروبة والإسلام عنه، فهو إذن ذمي اسمه سابا ولقبه شمرا:

وأحورَ ذمّيٍّ طرقتُ فِنَاءَهُ بفتيانِ صدْقٍ ما ترَى منهمُ نُكْرا[8]

فقلتُ له ما الاسمُ حُيِّيتَ؟قالَ لي دعَاني أبِي سابا ولقّبني شَمْرَا

هذا، والمعروف أن لأهل الخمر من باعة وخمّارين وسقاة بعض المواصفات ذكرها الجاحظ منها أن يكون ذمياً، وأن يكون اسمه واحداً من جملة أسماء منها اسم «آذين» الذي كرره أبو نواس كثيراً في خمرياته، كقوله:

يُديرها خَنِثٌ في لهْوِهِ دَمِثٌ من نسلِ آذينَ ذُو قُرْطٍ ودُوَّاجِ[9]

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٥٢ ط. آصاف.

(٢) هيت: مدينة عراقية ذكرت في الخطوط السومرية والبابلية (بلدان الخلافة الشرقية، لكي لسترنج، ـ هيت).

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي ٤/١٣٩ ط. دار الهلال.

(٤) ديوان أبي نواس ص٨٢ ط. الغزالي. والفهر: عيد لليهود أو معبدهم.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٦.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٥٢.

(٧) ديوان أبي نواس ص١١٩ ط. الغزالي.

(٨) المصدر السابق نفسه ص ١٢٤.

(٩) المصدر السابق نفسه ص ٤٨.

يُزْهَـى علينـا بأن الـليلَ طرَّتُـه والـشـمسُ غرّتُـه والّـلونُ للعَـاجِ

وكقوله أيضاً من مقطوعة:

اسْـقِـنـي يا آبـنَ أَذِينٍ من شرابِ الـزَّرَجُـونِ[1]

هذا، وقد لاحظت شيوع لهجة الإكبار والتمجيد في غلمانيات أبي نواس وهي لهجة تتجاوز الإعجاب الذي لا بد أن يكون مرافقاً للغزل إلى ما يشبه المهابة أو التوقير فمن ذلك قوله:

متـتـايه بجـمـالـه صلـف لا يُسـتـطاعُ كلامُـه تيهـا[2]
للحـسـن في وجـنـاتـهِ بِدَعٌ ما إنْ يَمـلُّ الـدرسَ قاريهـا
لو كانـت الأشـياءُ تعـقِـلُه أجْـلَلْنَـه إجـلالَ باريهـا
لو تسـتـطيعُ الأرضُ لانـقـبـضَـتْ حتّـى يصيـرَ جمـيعُـه فيهـا

يدل هذا النص على ضعف أبي نواس أمام معشوقيه من الغلمان ضعفاً لم يشعر به أمام معشوقاته من الجواري اللواتي هجا بعضهن وناجز بعضهن الأخر. في حين لم نقرأ له هجاء في غلام. فهو يسبغ على غلامه صفات الاختيال والتكبر منوهاً ببديع جماله وحسنه فالناظر إليه لا يمل من إطالة النظر محاولاً استجلاء كنه هذا الجمال العبقري بل إن أبا نواس لا يلبث طويلاً حتى يساوي بين إجلال الله عزّ وجلّ وإجلال هذا المخلوق الغلام، فلو تملك الأرض لتضامت أطرافها عليه حتى تحتضنه كله.

وقد تكررت لهجة الإكبار هذه في العديد من غلمانياته ولكن بصور مختلفة من ذلك تصويره لما تركه غلام من أثر في نفوس الناس حين مرّ بهم، فقد اشرأبت إليه العيون حتى أنها لطول تحديقها وشدة إمعان النظر أدمت خده:

مَرّ والـعـيون ترمـقُـه تجـرحُ منـه مواضِـعَ القُبَـلِ[3]

وغلام أبي نواس رغم بديع جماله من قامة تشبه الغصن في استوائه، ووجنة تشبه الوردة في احمرارها ومن طيب رائحته وحلاوة منظوم كلامه إلّا أنه فاتك شديد البأس قوي الشكيمة:

يخـتـال في مشـيتـهِ كالـغـصـنِ في قامتِـهِ[4]

---

(١) ديوان أبي نواس ص٧٠. والزرجون كلمة فارسية معناها الشراب الذهبي.

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٦٧، ٦٨.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/٨٨.

(٤) مختار الأغاني ٣/٩١.

والـورد في وجنـتـهِ والـطّيبُ في عُكْـنِـتـهِ
والـمـسـك في نُكـهـتـهِ والـدّرُ في لَثْـغـتـهِ
والـفـتـك من همّـتـهِ والـبـأسُ في قبْـضـتـهِ

إن في غزل أبي نواس الغلماني من الإكبار لمحبوبه ما لم نجده في غزله النسائي وهذا أمر غريب فلم أقع في غزله النسائي على مثل هذا الإكبار للحبيب أو الاستحياء منه إكباراً وتعظيماً ولا مثل هذا الاسترقاق حين يرتضي لا بعذاب محبوبه ولا بشقائه فيه فحسب بل بالتنازل عن عقيدته طائعاً مختاراً:

تمـرُّ فأسـتـحـييكَ أنْ اتـكـلّمـا وينـهـاكَ زهـوالـحسـن عن أنْ تُسَلِّمَـا[1]
ويهـتـزُّ في ثوبـيكَ كلَّ عَشِـيّةٍ قضـيبٌ من الـرَّيْحـانِ شبَّ مُنَـعّـمَـا
بحَـسْـبِـكَ إن الـجسـمَ قدشَفّـهُ الـهـوَى وإنّ جفـونَ الـعـين ذَارِفَـةٌ دمَـا
أَلـيسَ عَظيمـاً عنـد كل مُوَحِّـدٍ غزالٌ مسـيحـيٌّ يُعَـذَّبُ مُسْـلِمَـا
فلولا دخـولُ الـنـارِ بعْـدَ تنـصُّـرٍ عبـدتُ مكـانَ اللهِ عِيسـى بْنَ مَرْيَمَـا

أكثر من هذا وجدنا في بعض غزله الغلماني ما وجدناه في غزله في جِنان من التسامي عن المباذل ومن الأفكار التأملية من ذلك اصطناعه مذاهب المتكلمين في إحدى مقطوعاته الغلمانية وهو قوله:

يا عاقـدَ الـقـلبِ منّـي أَلَا تذكَّـرْتَ حَلاًّ[2]
تركْـتَ منّـي قليلاً من الـقـليلِ أَقـلاّ
يكَـادُ لا يتـجَـزَّا أَقـلُّ في الـلفظِ من لاَ

في هذه المقطوعة إشارة إلى فكرة الجوهر الفرد والجزء الذي لا يتجزء. وقد سبقت الإشارة إلى هذه المقطوعة في حديثنا عن ثقافة أبي نواس في الجزء الأول من هذه الدراسة كذلك نالت هذه المقطوعة إعجاب النظام المعتزلي الكبير حتى جعلته يسعى إلى الشاعر مادحاً ومقرظاً عاداً إياه أشعر الناس في هذا المعنى[3] والحق أن أبا نواس استطاع أن يراوح بين الفكر والوجدان، بين

---

(١) ديوان أبي نواس ٤/ ٣٢٠ تحقيق غريغور شولر.

(٢) المصدر السابق نفسه ٤/ ٢٩٣، وأخبار أبي نواس لابن منظور ١/ ١٣.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/ ١٤٩.

المنـزع التـأملي وفيض المشاعر في أسلوب أخّاذ أثرى الغزل بعمق الفكري وأضفى على الفكر جاذبية وطرافة ليظل أسلوبه الشعري محتفظاً بالعذوبة والسلاسة المعهودتين.

بل لقـد رأيناه يقترب في غزله الغلماني من غزله في جِنان في صورته العذرية وفي مضمونـه الفكري حتى كاد يكرر ما قاله في مقطوعته المشهورة في جِنان:

وذاتِ خَـدّ مـورّدْ فَتّـانـةِ الـمُتَجـرّدْ. . . .

من أن طول النظر إلى وجه الحبيب يجدد محاسنه في نفس الناظر أو يزيد فيها. ومثل هذا قوله في غلام من قصيدة له هجا بها عشاق العرب:

كأنّ ثيابَـه أطـلـعْـنَ مـن ازرارهِ قمَـرا[1]

. . . . . .

يزيدُكَ وجـهُـهُ حُسْـنَـا إذا ما زدتـهَ نظَرا

وقد راق هذا المعنى الدقيق العميق «أبا عبيدة».

حتى قال: (ما حفظت شعراً لمحدث إلّا قول أبي نواس)[2] وذكر المقطوعة. . . . !

ومثل ذلك قوله أيضاً في غلام مكرراً المعنى نفسه:

وبـديعِ الـحـسـنِ قد فاقَ الـرَّشَـا حُسْـنـاً ولـيـنَـا[3]
تحـسِـبُ الـوردَ بخـدَّيْهِ يُنَـاغِـي الـيـاسَـمـيـنَـا
كلمـا ازددْتُ إلـيهِ نظراً زدتُ جنـونـا. . .

أي إن تكرار النظر في وجه المحبوب يزيد الناظر شغفاً وهياماً به.

ومن مظاهر التسامي في غزل أبي نواس الغلماني كثرة اصطناع مراسم التأدب في المخاطبة وهي لغة غزلية مستحدثة استخدمها في غزله بالمؤنث أيضاً وقد حاول «عبدالرحمن صدقي» أن يرد هذه الـظاهـرة إلى عصر هارون الرشيد[4] إلّا إني أرى أن بذور هذه الظاهرة تعود إلى قيام الدولة العباسية حيث أخذت تشيع الطوابع الفارسية، حتى إذا جاء المنصور جعل الكثير من تلك الطوابع

(١) ديوان أبي نواس ص٥٥٩ ط. الغزالي.

(٢) العمدة ٢/١٤١.

(٣) ديوان أبي نواس ٤/٣٣٩ تحقيق غريغور شولر.

(٤) ألحان الحان ص٣١٥.

تقاليد لدولته في المعاملات الرسمية. ثم ألف الجاحظ كتابه «التاج في أخلاق الملوك» الذي تناول فيه مراسم الخلافة وأصول الدخول على الملوك والآداب المتبعة في منادمتهم حتى وجدنا أبا نواس وغيره من شعراء الغزل في أواخر القرن الثاني الهجري يستوحون تلك المراسم والتقاليد المرعية في أشعارهم، من ذلك مخاطبة أبي نواس محبوبه بلفظ سيدي في مقام المواساة والمشاركة في المصاب لما حل به من حمى:

فديتُكَ جسمي كان أحملَ للشَّكْوى ... وكان عليها منك يا سَيِّدِي أَقْوَى[1]
فديتك لمْ أُنصفْكَ إذ أنْتَ لابسٌ ... شعاراً من الحُمّى ولم ألبس الجُمَّى
فديتُكَ لَوْ أنَّ الذي بِكَ يُفْتَدَى ... بدُنْيايَ لم أَدْخَرْكَ شيئاً من الدُّنيا

وبلفظ «مولائي» أي مولاي في قوله:

واهاً لسُقمي وطولِ بَلْوائي ... آهٍ لنارٍ تُذيبُ أحشائي[2]
دجلةُ همِّي وفكرتي وبها ... كان لحينَ فراق مولائي

وفي مقطوعة له قالها متغزلاً في غلامٍ يسترضيه بأرق اللفظ وغاية التذلل واصفاً نفسه بالعبد لمحبوبه مخاطباً إياه بحياتي... وأميري:

قُلْ لذِي الوجهِ الطريرِ ... ولذي الرِّدْفِ الوثيرِ[3]
ولمغلاقِ همُومي ... ولمفتاحِ سُروري
والَّذي يبخلُ عنِّي ... بقليلٍ منْ كثيرِ
لِم تغَضَّبْتَ علَى عَبْدِكَ في خَطْبٍ يسيرِ
فارضَ عنِّي بحيَاتي ... يا حيَاتي وأميري

ومن الجديد في غزل أبي نواس في المذكر شيوع اصطلاحات أصحاب الكلام والفقه والمنطق[4] مثل قوله:

---

(١) ديوان أبي نواس ص٤٠٧ ط. آصاف.
(٢) ديوان أبي نواس ٤/١٥٠ تحقيق غريغور شولر.
(٣) المصدر السابق نفسه ٤/٢٠٨.
(٤) أبو نواس بين التخطي والالتزام لعلي شلق ص٢٤٠.

فلانٌ جادَ لِي بعْـدَ امـتـنـاعِ كذاكَ اللهُ يفـعـلُ ما يريدُ[1]

أو كقوله:

- ما طارَ طَرفِي إلى تَحْصيلِ صُورتِهِ إلاّ تداخَـلَنِـي من حُسْنِهـا عَجَبُ[2]
- فقـال إلـيك يا جَمَّـاشُ عنَّـا فَإنِّـي من حَديثِـكَ في اعْـتَـزالِ[3]

أو كقوله أيضاً:

فوَا حربَـاهُ من عَيْنِـي بِلَذّتِـهَـا جنَـتْ ضَرَرِي[4]
فإن عاتَـبْـتُـهَـا فيهِ أحَـالَـتْـنِـي علَى الـقَـدرِ
فتـخْـصِـمُـنـي فاسْـكُـتُ لاَ أحـيرُ الـقـوْلَ كالـحَـجَـرِ

أبو نواس يرجع ما جنت عليه عينه من ضرر على القدر، وهو ضرر كما تقول عينه، مكتوب عليه فعلاً لا حيلة لها ولا لأبي نواس نفسه فيه...!

وكقوله أيضاً مصطنعاً اصطلاحات الفقهاء وأحكامهم الشرعية:

لا زلـتُ صائـمَ سُخْـطِكُـمْ حَتّـى يُفَـطّرنِـي الـرِّضَـا[5]

و:

طَرفُـكَ زانٍ قُلْتُ دمـعِـي إذَا يَجْـلِدُه أكـثـرَ من حَدِّ[6]

ولعل في المقطوعة التالية جماع منحى أبي نواس المستحدث في غزله هذا من تأمل فلسفي، ومنطق عقلاني، وأحكام فقهية شرعية:

شبيـهٌ بالـقـضـيـبِ وبـالـكـثيـب غريبُ الـحُـسْـنِ في قِدٍّ غريبِ[7]
بعـيدٌ إنْ نظرْتَ إلـيه يومـاً رجـعْـتَ وأنـتَ ذُو أجـلٍ قريبِ
ترى للصَّـمْـتِ والـحـركـات فيه سهـامـاً لا تذادُ عن الـقـلوبِ
ويمـتـحـنُ الـصـدور بمـقـلتيه فينـكـشـف البـريء من الـمـريبِ

---

(١) ديوان أبي نواس ص٤١٩ ط. الصاف.
(٢) نفسه ص٤١٠.
(٣) نفسه ص٤٣١.
(٤) نفسه ص٤٢٤.
(٥) نفسه ص٤٢٧.
(٦) المصدر السابق نفسه ص ٤١٨.
(٧) المصدر السابق نفسه ص ٤٠٨، ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص٣٢٦، ديوان أبي نواس ١٥٧/٤.

فيا من صِيغَ من حُسْنٍ وطيبِ وجلَّ عن المُشَاكِل والضَّريبِ
اصبْنِي منكَ يا أملي بذنبٍ تتيهُ علَى الذّنوبِ بهِ ذُنُوبِي

في هذه المقطوعة يتغنى أبو نواس بمحاسن غلامه «جندب» الذي كان أبوه على شرطة الخلافة زمن الأمين وقد غلب فيها المقاييس الجمالية المعهودة من قد ممشوق كالغصن، وردف وافر مثل كثيب الرمل، لكن هذا المحبوب بعيد المثال وإن يكن عشقه يقرب الأجال، وهي مقابلة حسنة جمع فيها أبو نواس بين اليأس والأمل، وكذلك وصفه في حاليه ساكناً ومتحركاً بأن سهامه تحمي القلوب فلا يمكن ذودها عنها، وبأنه ثاقب النظر، تتجلى أمامه أسرار القلوب فيعرف البريء من المريب، وهكذا كان مثالاً نادراً لا نظير له في حسنه وطيبه.

أما فيما يتصل بالأوصاف التي خلعها أبو نواس على غلمانه فالغالب عليها أن تكون منتزعة من صميم حيوات أولئك الغلمان بأزيائهم الجديدة، وأساليبهم الغريبة وهي أزياء وأشكال قربت ما بين أولئك الغلمان والجواري خاصة الغلاميات منهن، واللواتي قلنا إنهن شكلن عند أبي نواس جنساً وسطاً بين الأنثى والذكر، حين خطون من الأنثى باتجاه الذكر، ومثلهن كان هؤلاء الغلمان جنساً وسطاً بين الذكر والأنثى، حين خطوا من الذكر باتجاه الأنثى. وإذا كان أبو نواس قد حار في تحديد شخصية غلامية إن كانت ذكراً أم أنثى وذلك حيث يقول:

فَابنْ لِي: اكعَابٌ أَنْتَ أَمْ أَنْتَ غُلَامُ[1]

وكقوله أيضاً:

لهَا شَكْلُ الإناثِ وبَيْنَ بَيْنِ تَرَى فيها تكاريه الغُلام[2]

فإنه يتردد في شخصية غلامه أيضاً بين الذكر والأنثى حيث يقول:

وَمُوَحدٍ في الحُسْنِ، جلّلهُ بردائه ذُو الطَّوْلِ والقُدْس[3]
إن شئْتَ قلْتَ خريدة جُلِيَتْ للشّرْب يومَ صبيحةِ العُرْسِ

إن أبا نواس يتجه بجمال هذا الغلام نحو الجمال الأنثوي..!

وكذلك قوله:

ومشتركٍ فيه إذا الوهْمُ نالَهُ تخَنُّثُ أُنْثى واعتدالُ غُلَامِ[4]

---

(١) ديوان أبي نواس ٤/٣٢٨.
(٢) ديوان أبي نواس ط. آصاف ص٣٢٧.
(٣) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص٢١٦.
(٤) ألحان الحان ص٣٠٥.

حتى إذا جمع النص الشعري ما بين ساق (غلام) وساقية (غلامية) أو لنقل ما بين ساق وساقية أو غلام وجارية غلبت الصفات الأنثوية على الساقي أو المذكر نفسه، مثال ذلك قول الشاعر في إحدى خمرياته:

لَا سِيَّمَا إِنْ أُدِيرَتْ من مُقَرْطَقَةٍ[1] أَوْ مرهَفٍ كقضيبِ البانِ ميَّاسِ[2]
إِطْراقُه مُطْمِعٌ، والوصْلُ ممتنِعٌ فأنتَ منه علَى الإطماعِ والـيَأسِ

فهذا الساقي صورة أخرى من الأنثى، كما تدل عليه الصفات الأنثوية التي أضفاها عليه الشاعر، فهو دقيق الخصر هضيم الكشح ممشوق القد، يهتز ويميل في خطوه طرباً ودلالاً، كما تفعل الصبابا الحسان المعتدة بجمالها، كما يجلو لنا أبو نواس جانباً من نفسية هذا الغلام حين يجعل إطراقه ساكناً بلا حِراك كأسلوب للإثارة والإغراء، ومع هذا فالوصول إليه ممنوع، وهكذا يظل عاشقه أسيراً لهواجسه متأرجحاً ما بين اليأس والأمل، دون أن يستقر به الحال على يأس مريح أو أمل واعد...!

والظاهر أن هذا الجنس الثالث قد كان له وجود فعلاً بعد التشويه الحضاري الذي لحق ببعض قطاعات المجتمع العباسي، وأسميه المجتمع العباسي حتى ننسبه إلى مختلف الأجناس والعناصر التي شاركت في تكوينه حتى وجدنا هناك ظاهرة غريبة على المجتمعات العربية والإسلامية غير مألوفة وهي ظاهرة المرأة المذكرة والرجل المؤنث كما دلتنا عليهما غلاميات وغلمانيات أبي نواس. ينقل الجاحظ عن عثمان بن الحكم قوله: (كان عندنا في الحي فتى ولدته امرأة مذكرة لرجل مؤنث، فما رأيت ولا سمعت بخلق ردئ من أخلاق البغال إلّا وقد رأيته فيه)[3] وقد تابع الجاحظ هذه الفكرة في كتاب الحيوان حيث يقول: (وشر الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادة والأخلاق المتفاوتة والعناصر المتباعدة كابن المذكرة من النساء والمؤنث من الرجال)[4].

هذا، وقد كان للأزياء المستحدثة التي أخذ يتزيا بها الغلمان في هذا العصر وغيرها من الملابس والأساليب التي اصطنعها الغلمان أثرها الواضح في غزل أبي نواس الغلماني من تلك الأساليب الحركات والكلام والمشي وإطالة الشعور أو تقصيرها خطت بالأنثى كما قلت خطوة نحو الذكر وبالذكر خطوة نحو الأنثى ليلتقيا في منتصف الطريق فيما أسميناه بالجنس الثالث.

---

(١) المقرطقة: لابسة القرطق وهو ثوب فارسي. المرهف: الرقيق، الضامر. ماس: اهتز ومال.

(٢) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص٢١١.

(٣) رسائل الجاحظ ٢/٢٥٦.

(٤) الحيوان ١/١٠٣.

يقول عبدالرحمن صدقي: (ولقد كان لشباب بغداد في ذلك العهد بدعة في تسوية شعرهم فكان الشاب منهم يحدق شعره على جبينه دون أن يبلغ جبهته ويسويه مع حاجبيه ثم يدوره إلى أذنيه بعد مسحه بالعنبر أو تنديته بالمسك ثم يسدله إلى صدغيه)[1] وفي ذلك يقول أبو نواس:

صُدغاهُ قد سَالا على خَدّهِ مثلَ عناقيدَ علَى وَرْدِ[2]
وصولجانُ الصُّدغِ مستمكِنٌ للضَّرْبِ من تُفّاحَةِ الخَدِّ

وما أظن أن أحداً يصدق أن هذا الشعر المقصود به غير أُنثى أو مَنْ هو في حكمها، بعد أن أجاد أبو نواس في رسم صورة المتغزل به بدرجة مقاربة جداً من الأُنثى. وهكذا كان إحساس أبي نواس بهذا الجانب من شخصية المتغزل به ينسيه جنسه، أو نوعه ليضفي عليه نفس المواقف أو المقاييس المتوارثة.

والواقع أن أبا نواس كان إذا صدق في عاطفته تجاه أي غلام وقف منه موقف العاشق المألوف في تراثنا وموروثنا الغزلي لأن كثيراً مما قاله أبو نواس في الغلمان هو من قبيل اللهو والعبث والمجون يقول أبو نواس:

يا تاركي جسداً بغيرِ فؤادِ أسْرفْتَ في هجْري وفي إبْعَادِي[3]
إنْ كانَ يمنعُكَ الزيارةَ أعْيُنٌ فادخُلْ عليَّ بعِلّةِ العُوّادِ
إن العيونَ على القلوبِ إذا جَنَتْ رجعَتْ مضَرَّتُهَا على الأجْسَادِ
أشكو إليك جَفاءَ أهْلِكَ، إنّهُمْ ضربُوا عليَّ الأرضَ بالأسْدَادِ

فهل هناك أرق وأعذب وأحلى على اللسان من هذا الكلام العذب الرقيق الحلو، إن الصدق يطلّ من كل كلمة من كلمات هذه المقطوعة الصدق الحسي والصدق الفني وهما متطابقان متكاملان ليذكرانا بجمال الشعر، من غير أن نشوه صورة ما ترسمه لنا المقطوعة، بأنها قيلت في مذكر، ولماذا لا يكون أبو نواس يعمى ويكذب أو يهزل ويعبث ولا يصدق في بعض غزله الغلماني، ولا أدري كيف يكون هذا الشاعر صادقاً في غزله، وهو يقرظ غلاماً أو جملة من الغلمان، تجاوزوا مرحلة المرودة، إلى الشباب فالرجولة، ليصدق بعض من درسوا أبا نواس أو نقلوا أخباره أنه معجب

---

(١) ألحان الحان ص٣٠٥.

(٢) ديوان أبي نواس ١٩٦/٤ تحقيق غريغور شولر.

(٣) ديوان أبي نواس ص ١٩٧/٤.

بالغلام حتى بعد أن صار صاحب لحية، مع أن الجاحظ يذكر على لسان صاحب الجواري أن الغلام (أكثر ما تبقى بهجته ونقاء خديه عشرة أعوام إلى أن تتصل لحيته ويخرج من حد المرودة)[1] ولكن أبا نواس يأبى إلاّ أن يلاحق غلامه حتى مرحلة الرجولة مشبهاً شعر لحيته مرة بالزغب النابت، عادا ذلك من أسباب فتنته وغوايته، ومرة أخرى بالزعفران على أرض من المسك ثم ما يتبع ذلك من فحش وإباحية:

رَأى بِخَدّيهِ نابتاً زغباً فضَنّ عنّي هُنَاكَ بالقُبَلِ[2]
وقال قد صرتُ يا فتًى رجُلاً وذا قبيحٌ أراهُ بالرَّجُلِ
فقُلْتُ يا مَنْ زهَا بلحْيَتِهِ الآنَ واللهِ طِبْتَ للْعَمَلِ
ذا زعفرانٌ والمسكُ تربَتُهُ يخرجُ من تحتِ صُدْغِكَ الرّجِلِ

هذا، في حين يذكر أبو نواس في نص آخر، إن الغلام الذي يعجبه مَنْ كان دون سن الاحتلام أو في سن المرودة، كقوله من قصيدة في تمليح الغلمان وتفضيلهم على النساء:

مَنْ يكُنْ يعشقُ النساءَ فإنّي مولَعُ القلبِ بالغلام الظّريفِ[3]
حين أوفى علَى ثلاثٍ، وعشْرٍ لم يطُلْ عهدُ إذنهِ بالشُّنوفِ

وكقوله أيضاً معلناً صراحة عن شروطه في الغلام وهي الصغر في السن قبيل الاحتلام، طرى خالية بشرته من الشعر.

فوق الخماس لما طر شاربه رخص البنان خلا من جلده الشعر

بل إنه حين ووجه بساقيين كان يعشقهما، فضل أصغرهما سناً، الذي لم تنبت له لحية ولا شارب، وهو ساق غرير قد عقرب شعر صدغه، وارتدى القباء الفارسي، وهو الذي ميزه الله بفتنة الجمال، بحسن في جبينه وحاجبيه:

أشْتَهي الساقيين لكنّ قلْبي مستهامٌ بأصغرِ السّاقيَيْنِ[4]
ليسَ بالابسِ القميصَ ولكنْ ذِي القباءِ المُعَقْرَبِ الصُّدْغَينِ
الذي بالجمالِ زيّنَهُ اللّهُ وحسنِ الجبينِ والحاجبَيْنِ

---

(١) رسائل الجاحظ ٢/١٢٢.

(٢) أخبار أبي نواس لأبي هفان ص٤٨، أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٧٤.

(٣) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص٧٢٠. (٤) ديوان أبي نواس ص٣٥٣ ط. آصاف.

ولهذا رفض أبو نواس الغلام إذا كانت له لحية ثابتة، وإنما هواه في الأمرد الطرير الأهيف ذي الردف الوافر من الغلمان:

يعجبني الأمردُ الطريرُ إذا أبصرتُه أهيفاً لهُ كفَلُ[1]
حَتّى إذا ما رأيتُ لحيتَهُ فليسَ بيني وبينَهُ عمَلُ

وإذن، فليس من المعقول أن يعمى أبو نواس عن مواطن الجمال في الإنسان، ما دام العصر كان يضع أمامه الاختيارات الكثيرة بغض النظر عن الجانب الأخلاقي، ليتعلق برجل كث اللحية والشارب...!

وشبيه بهذا ما تنقل لنا الأخبار والأشعار أيضاً عن غرامه بغلام في عينه كوكب، حتى أن صديقه «ابن الداية» عاتبه على هذا الغرام منبهاً إياه إلى ما في الغلام من عور واصفاً الكوكب الذي في عينه بأنه أعظم من كوكب الذنب ومع هذا فقد قال أبو نواس في الغلام متغزلاً[2]:

أحورُ المقلَةِ من غيرِ دعَجْ لو عداهُ عوَرُ العَيْنِ سَمُجْ[3]
تحسب النكتةَ في ناظرِه درةً بيْضاءَ في فَصِّ سَبَجْ[4]

المفاضلة بين الغلام والجارية:

إذا كان أبو نواس، انتهى في غزله الشاذ كما قدمنا إلى الأزراء بالمرأة باعتبارها موضوع الغزل الطبيعي، فإن ذلك معناه أن الشاعر قد جمح به الشذوذ إلى درجة من التمادي خرج بها من كون هذا الغزل قضية فردية هي هذه العلاقة الشاذة الخاصة، إلى جعله قضية عامة، وذلك حين وضع هذا الغزل في تضاد مستمر مع ما اصطلح عليه المجتمع من علاقة الرجل بالمرأة، أما لماذا لم تصادفنا مثل هذه الجدلية في غزله بالغلاميات. فلأنه بالإضافة إلى كونه لم يتجاوز فيها المرأة إلى الغلام بتوفيقه ما بينهما فيما أسميناه بالجنس الثالث، لم يتخل في تلك الغلاميات عن المرأة من جهة، ولأنه أيضاً قد أقام في تلك الغلاميات ما بين الرجل والمرأة جسراً من التوافق، من خلال الزي المشترك أو السلوك المصطنع حتى أنه كثيراً ما كان يشير إلى مهمة الغلامية المزدوجة باعتبارها مذكرة مؤنثة. أما في غلمانياته فالموقف مختلف، إذ جره شغفه بالغلمان إلى تجاوز الدفاع عن

---

(١) أخبار أبي نواس ١/١٥٧.

(٢) نفسه ١/١٠٣.

(٣) سمج: قبح.

(٤) النكتة: النقطة. والسبج: جمع سبجة وهي كساء أسود.

الغـلام إلى المفـاضلة بينه وبين الأُنثى لينتهي إلى النتيجة الطبيعية المتوقعة وهي القول بأفضلية الغلام على الجارية.

ونـظراً إلى أن أبـا نواس لم يكن بدعـاً عند الأقدمين لا في شذوذه الشخصي ولا في شذوذه الفني، كذلك كان غاية ما لاحظوه عليه، الكثرة في شذوذه أو التفوق في فنه، وأحياناً كانوا يعدون غزله بالمذكر من قبيل الهزل والعبث أو التماجن أما المحدثون، فقد حاولوا أن يربطوا بين شذوذ أبي نواس الشخصي، وشـذوذه الفني وهـذا غير صحيح؛ لأن شذوذه الشخصي ليس علة في شذوذه الفني، ففيهما جميعاً كان أبو نواس مسبوقاً من غير أن نلاحظ أن أحد الشذوذين كان عند الأخرين، علة في الأخر أو نتيجة محصلة له...!

هذا، ومهما حاولنا تفسير ما جاء به أبو نواس من تصورات للمرأة أو الرجل والعلاقة بينهما. وموقف كل واحد منهما من الأخر، فإن العبرة الأخيرة تظل لشعره الذي قاله في هذه القضية أو تلك بعيداً عن تخرصات النفسانيين التي لم تزدنا إلّا تماديا في تجهيل أبي نواس إلينا، فالعلل والعقد والأسباب المباشرة وغير المباشرة التي حامت حول أبي نواس في تعليل أو تفسير أية ظاهرة شعرية عنـده بغض النـظر عن مضمـونهـا الاجتمـاعي أو الفني مردها أخيراً إلى النص الشعري، بلغته الشعرية، وأبعادها الفنية، وهكذا تجاوزنا عن كل ما أعددناه لهذه القضية التي صمدنا لها عنوان هذه الكلمة، لنعمد مباشرة إلى النـص الشعري الذي إليه كان مردنا في الحكم واستخلاص النتائج...!

هذا، ولا يكاد أبو نواس يتركنا في شك مما يريد أن يحمله إلينا مهما كان موافقاً لأمزجتنا أو مخالفاً، وهكذا جاءنا أبو نواس ببدعة أفضلية الغلام على الأُنثى، مازجاً بين الجد والمجون أو بين الإحساس الصادق أحياناً وبين السخرية أو العبث. ولعل ذلك هو الذي جعل الجاحظ يعتبر بعض ما قاله أبو نواس في تمليح الغلمان وذم النساء من الهزل[1] بل نستطيع أن نقول أن ما قاله في هذه القضية لا يخرج عن كونه انطباعات آنية ليس لها صفة الحكم أو الرأي الثابت حتى أنه تناقض في بعضهـا كمـا سنـرى. وكـان بعضهـا الأخـر أشبه بالمناجزات التي دارت بينه وبين بعض القيان والجواري منه بالغزل نفسه سواء الذي قاله في المذكر أو المؤنث!

هذا، ولعلنا لا ننسى أن أبا نواس أغرم بالغلاميات من الجواري وتغنى كثيراً بأزيائهن وأساليبهن كما أشرنا من قبل ولكنا نراه يزري بهن، مفضلاً الغلام على الغلامية، وكلاهما كما بينا يقفان في

---

(١) رسائل الجاحظ ٢/ ١١١-١١٤ (مفاخرة الجواري والغلمان).

منتصف المرحلة بين الذكر والأنثى، أو بين الأنثى والذكر.

لا أبتغي بالمُرد مطمومةً ولا أبيع الظّبيَ بالأرْنَبِ[1]

على أن بعض انصرافه عن النساء إلى الغلمان قد يكون سببه أنه لم يكن مجدوداً منهن[2] أو لأنه كان محروماً من حبهن. حتى أن جناناً، حبّه الوحيد لم تبادله الحب لينتهي به الحال إلى اليأس والقنوط، وهكذا، علّق أبو نواس وإن يكن بصورة خفية، الارتباط بالمرأة، على الإعجاب المتبادل الذي كان محروماً هو منه، ليتجاوزه إلى معين آخر ينهل منه، أو شاطىء موحل آخر، يدفن فيه آلامه وخيبة آماله:

مَنْ كان تعجبُه الأُنثى ويعجبُهَا من الرّجالِ فإني شفّني الذكَرُ[3]

بهذا يمكن تفسير رفضه الزواج أيضاً[4]، الذي لا يخرج عن كونه تثبيتاً للعلاقة الطبيعية التي تربط بين الرجل والمرأة والتي تقوم على الإعجاب المتبادل، مستبدلاً بها هذه العلاقة الشاذة مع الغلمان التي تجدد الإعجاب المفقود ولذلك كانت حجته في الدفاع عن شغفه بالغلمان تقوم على صورة المرأة من حيث هي جنس أو نوع أو أحد طرفي القضية المطروحة، مزرياً بها، ساخراً منها.. ثم رافضاً لها:

صاحبة القرقر[5] لا تشْغَبي تحمّلي طالقةً واذهَبي[6]
مُرّي فكم مثلكِ من حُرّةٍ رائعةٍ لم تَكُ من مَطْلَبي
لا أبتغي بالظّمثِ مْطمومَةً ولا أبيعُ الظّبْيَ بالأرنَبِ
لا أشتهي الحَيْضَ ولا أهْلَهُ غَيْرُكِ أشْهَى مِنْكِ في المَرْكَبِ
أولا فإن كنْتِ غلاميّةً من شَرْطِ مثلي، فَرِدي مَشْرِبي

إذن هو يقبل المرأة، إن كانت غلامية توافق شرطه الذي رفضته «جنان» وأرادت أن تستبدل به شرطاً آخر هو هذه العلاقة الطبيعية ما بين الرجل والمرأة ولكنه رفض الاستجابة لطلبها فكانت القطيعة... ولعل ذلك كان شأنه مع جميع النساء، ما خلا الغلاميات اللائي كن يوافقن شروطه فهذه واحدة كررت نفس موقف «جنان» لائمة إياه على اختياره غلاماً على غانية رامية إياه بالجهل

---

(١) رسائل الجاحظ ٢/١١١.
(٢) أخبار أبي نواس ١/١٨٢.
(٣) أخبار أبي نواس ١/٨٧.
(٤) المصدر السابق نفسه ١/١٠٦.
(٥) القرقر: لباس النساء خاصة. الشغب: تهييج الشر. (٦) أخبار أبي نواس ١/١٠٦.

وعدم التوفيق، ولكن أبا نواس يرميها بالجهل كما رمته، رافضاً أن يعلل نفسه بالسفاسف وبما لا طائل من ورائه(؟) . . . لأن ذلك هو اختياره الأبدي رغم كراهيتها له:

وعاذلةٍ تلومُ على اصطفائي ... غلاماً واضحاً مثْلَ المهَاةِ[1]
وقالت: قد حُرِمْتَ ولم توفَّقْ ... لطيبِ هوَى وصالِ الغَانيَاتِ
فقلت لها: جهلتِ فليس مثْلي ... يُخادع نفسَه بالتَّرَّهَاتِ
أأختارُ البحارَ على البَرارِي ... وأحياناً على ظَبْيِ الفَلاَةِ
دَعيني لا تلوميني فإنّي ... على ما تَكْرهين إلى الممَاتِ

وفي موقف آخر، دس له أهله امرأة لتغريه بالزواج من امرأة سرية، فقدم أسباباً ثلاثة لرفض العرض هي: الفسق، وضعف العقيدة والإفلاس، والمعروف عن أبي نواس المجاهرة بالفسق، والتجاوز في الدين، وأنه لم يكن يبقى على شيء يصل إليه. وهي أسباب واضح فيها طابع العبث والمجون والسخرية، ولكنه يضيف إليها ما يمكن أن يفضح سر انصرافه عن الزواج وهو رغبته في أن يظل طليقاً من أسار أي قيد سواء كان هذا القيد ديناً أم تقليداً أم عرفاً أم زوجاً وولداً. . . !

أقولُ لها لما أتتْني تدُلّني ... على امرأةٍ موصوفَةٍ بجمَالِ[2]
أَصَبْتِ لها يا أختُ فحْلاً كما اشتهَتْ ... إذا اغتفرَتْ منّي ثلاثَ خصَالِ
فمنهُنَّ فِسْقٌ لا يُنَادَى وليدُهُ ... وَرِقّةُ إسلامٍ، وقِلَّةُ مَالِ
ولو أنّها في الحُسْنِ كانتْ كيُوسُفٍ ... وبلقيسَ، أوْ كانتْ كخَطٍّ مثالِ
وقالتْ: تزوّجْني على مهْرِ دِرْهَمٍ ... لقلتُ: اعزُبي عَنّي فمهْرُكِ غَالِي

إن أبا نواس لا يغريه إذن، ما يغري كل رجل في المرأة من جمال وثراء ولا التخفف من أعباء الزواج، وإنما هو يرفض الزواج كالتزام ومسؤولية، لأنه يحد من حريته ولعل هذا السبب لم يحاول أحد من الكُتّاب أن يوليه من الأهمية ما هو جدير بها وإنما راح غالبيتهم يبحث في الأسباب البعيدة والقريبة لشذوذه التي أدت به إلى رفض المرأة ليرفض الزواج، مع أنه في الحقيقة لم يقلع عن طلب المرأة، سواء أكانت جِناناً أم إحدى الجواري الأخريات، أم كانت غلامية في نفس الوقت الذي كان فيه يطلب الغلام أيضاً. . . !

وفي مجال المفاضلة بين الغلام والمرأة يميز أبو نواس بينهما كجنسين مختلفين معترفاً بما

---

(١) أخبار أبي نواس ١/١٠٧.
(٢) نفسه ١/١٠٨.

للمرأة من ميزة الجمال التي ربما أضفاها على غلامه، ولكنه يجله عن أن يواري جماله الشبيه بجمال المرأة أثام بني جنسها، وهي الطمث والحيض وما إلى ذلك من حبل وولادة. . . !

ومـوَحّـدٍ في الـحـسـن جلّلَهُ بردائـه ذو الـطَّوْلِ والـقُـدْسِ[1]
إن شئْـتَ قلتَ خريدةٌ جُلِيَتْ للشـرْبِ يوم صبـيحـةِ الـعُـرْسِ
وأعـيذُه من أن يكـون له ما تحـت مِئْـزرِهَـا من الـرِّجْسِ

هكذا كان غزل أبي نواس من الوفرة في الكم والتعدد في الفنون بحيث لم يترك جانباً من غزل العصر العباسي، العفيف منه والإباحي أو الطبيعي والشاذ إلّا تناوله في غير اعتدال. فإذا لم يكن مبتكراً في كل فنون غزله فإنه كان المجلي في البعض والمكمل لمسيرة البعض الأخر ثم المتفوق أو المبدع في البعض الثالث. فغزله كفيء عدل لخمره وإن عده النقاد فنه التجديدي الثاني. لكنه من غير شك لا يساويه في كثرته ولا تفننه ولا في ابتكاراته غزل أي شاعر آخر معاصر له.

---

(١) ديوان أبي نواس، ص٢١٦ ط. الغزالي.